1013
Harlequin
روايات عبير
سلسلة قصص وروايات
دار النحاس

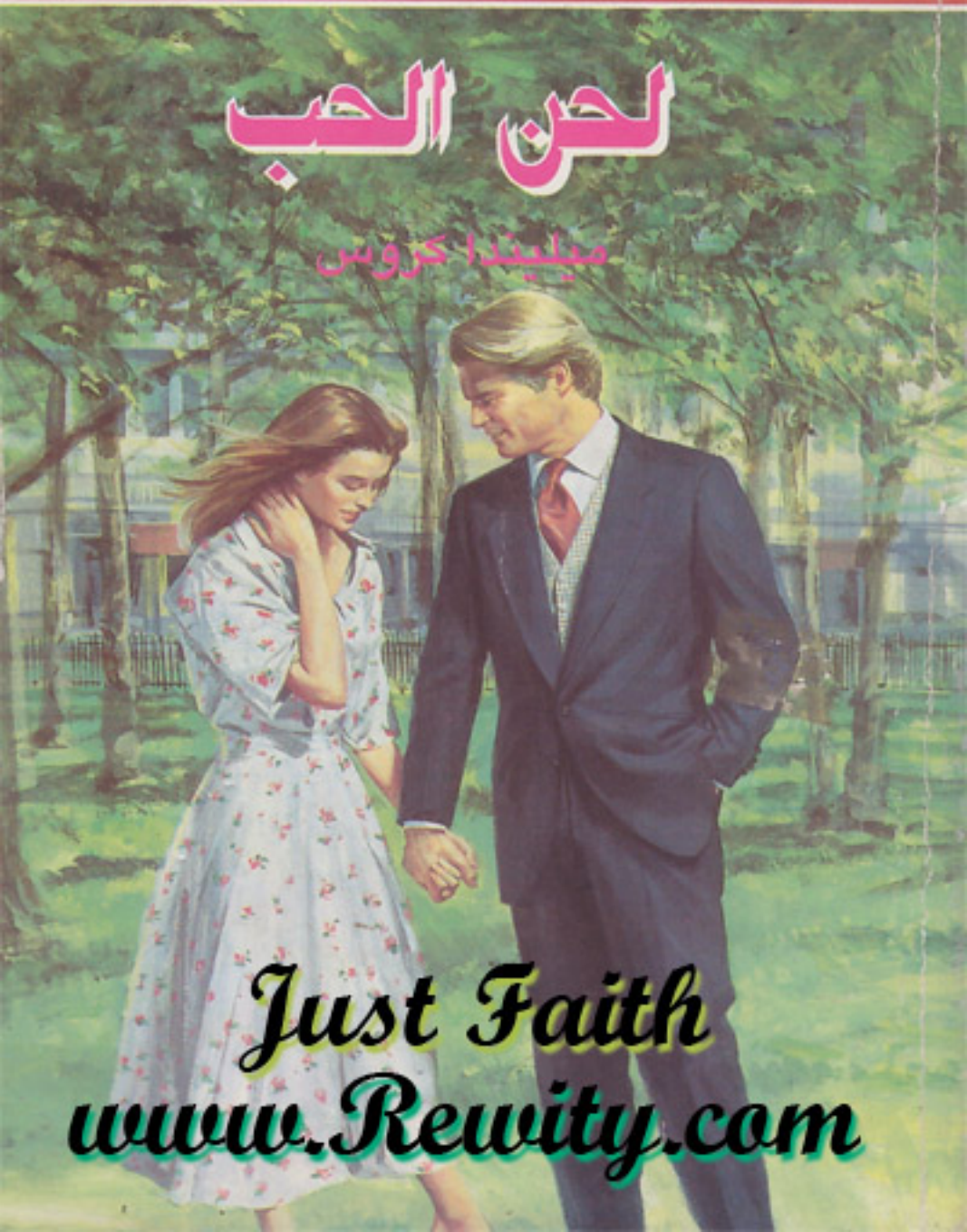

لحن الحب

ميليندا كروس

Just Faith
www.Rewity.com

روايات عبير

لحن الحب

ميليندا كروس

لقد كتبا معاً موسيقى جميلة... ولكن هل هذا يكفي؟
الموسيقى كانت السلوى الوحيدة المتاحة «مادلين تشاجرز» في طفولتها البائسة... وخاصة أغاني الموسيقار الياس شيبرد. لقد سحرتها ألحانه وأخذت بشغاف قلبها.
تحقق حلمها عندما عرض عليها استاذها الروحي عملاً. وحينما سمعها الياس شيبرد تعزف ألحانه، في مباراة محلية، ادرك على الفور أنها الشخص الذي بمستطاعه انقاذ مهنته... وروح الإبداع عنده.
تغنى الياس بحبه لمادلين في ألحانه، ولكن هل يستطيع ان يلفظ الكلمات الرائعة التي انشدت في اغانيه ؟

www.Rewity.com

«ما مدى أصابعك؟»

«عشرة مفاتيح.» فردت أصابعها على وسعها على راحة يده، تصديقاً لكلامها، ثم، فجأة وعلى غير توقع، حدث شيء ما. شعرت وكأن أصابعها أصبحت على نار، بعد أن جذبت الحرارة من راحتيه الحساستين، وكان من الواضح أنه شعر بذلك أيضاً، لأن عينيه رفتا بدهشة في نفس اللحظة التي رفت فيها عيناها، وأخذ نفساً عميقاً ومسموعاً.

تجمدت مائلين، وقد سمرتها الاشارات المتبادلة بين يديها وعقلها، ونظرته المخدرة. وفيما هي تراقبه، اتسعت حدقتا عينيه حتى بدا أن لونهما الأسود قد أمحى تقريباً لون عينيه الأخضر، ولسبب ما شعرت بالخوف.

«لا اعتقد أنني سمعت ألحاني حقيقةً، حتى اللحظة التي سمعتك تعزفينها اليوم.» قال لها، ولكن بصورة ما أحست أن نبرته يغلفها وعيد أكثر من اطراء. «وأنا غير مستعد أن اسمح لأي كان بالتدخل بهذا الوضع.»

www.Rewity.com

الفصل الأول

جلست مادلين في الظلال المظلمة في مؤخرة قاعة المحاضرات الكبيرة، ذقنها مرفوعة وعيناها مغمضتان. عندما تنفست، تحركت بمحاذاة ذقنها خصلة شعر خطّها الشيب، ولكن، ما خلا ذلك ولولا ارتعاش أناملها الخفيف في حركة آلية على حضنها لكانت ساكنة تماماً.

بدا الشحوب على قسمات وجهها الباهت كلون شعرها. تعتريها هذه الحالة كلما غادرت شقتها في مانهاتن. فنظرات الغرباء المحدقة إليها بازدراء قد دفعت بها إلى تفضيل البقاء في بيتها، ولكن هذا اليوم كان خاصاً في حياتها، فهي لم تهتم بالنظرات الفظة، وهي في الواقع، لم تتنبه لها.

عادت قسمات وجهها لتستعيد صفاءها في تلك الأثناء، الأمر غير المألوف في تلك القاعة، حيث كانت الوجوه، في معظمها مشدودة باحكام. وطافت مادلين بنظرها على شتات المتبارين الآخرين الموزعين بين مئات المقاعد الشاغرة. وتكوّن لديها رأي في أن معظمهم من عازفي البيانو المحترفين ولكنهم يغردون خارج سربهم في مباراة سوف يحظر عليهم فيها عزف الموسيقى الكلاسيكية. وقد تناهى إلى مسمعها تذمر بعض الذين كانوا جالسين في المقاعد القريبة منها.

«ماذا يريد مؤلف موسيقى مشهور مثل الياس شيبرد من

عازف بيانو كلاسيكي، بحق السماء؟» تمتم شاب صغير.

«ومن تراه يأبه؟» أجابه رفيقه: «طالما انه يملك المال ليسلّم جوائز كهذه، والله لأعزف أي شيء يرغب في سماعه. إلا أن المشكلة تكمن في أني لست متأكداً من كوني أستطيع عزف الموسيقى التي تروق له.»

راحت مادلين تتفرس في وجوههم وهي تسبر غور التوتر الظاهر فيها... الذي امست تتنشقه مع روائح العطور التي كانوا قد تخضبوا بها... و بتجرد مطلق، شعرت بالشفقة عليهم. فهي لم تحضر الاحتفال لتنال رضى أحد، بل جاءت من أجل الجائزة المالية فقط. حتى أن الجائزة المرصدة لمن يتبوأ المركز العاشر كانت تعتبر ثروة في حد ذاتها؛ أما امكانية احتلالها للمراكز الأولى المتقدمة، فلم تخطر على بالها قط. فهي، على أية حالة، لم تكن محترفة، وإنما مجرد مدرسة بيانو تعمل في نيويورك وتعيش عيشة مقتصدة. التفاؤل كان حالة ذهنية ذهبت مع أيام طفولتها.

ذكريات الطفولة هذه قد وضعت على رف النسيان وقد مهرها الزمان بختمه وصارت أشبه بأوراق قديمة لا جدوى منها، مزدحمة داخل علبة دفعت إلى أقصى الخزانة. ولكن، في أوقات كهذه، عندما تكون محبطة، كانت هذه الذكريات تزحف إلى صدر أفكارها، كبقعة على بساط تظهر مرة بعد الأخرى، مهما تعرض ذلك البساط للتنظيف والفرك.

غير شرعية. العبارة طُبعت في ذهنها وكأنها تعليق على وجودها إثر ظروف ولادتها. فقد كان أبوها رجلاً غير معروف. أما أمها فكانت مراهقة يائسة لم تنعم بطفولتها... ودلفت مادلين إلى هذا العالم، غير متوقع حضورها وغير

مرحب بوجودها، محطمة بذلك حياة أرواح شابة قبل أن تتنفس أنفاسها الأولى.

قد علمت بعد سنوات أن مؤسسة التبني الخيرية قد أضفت عليها لقباً آخر أكثر سوءاً من سلفه: «صعبة التبني.» فلم تدر كيف حازت على هذا اللقب الجديد، بل شكّت في أن سمتها الغريبة الشاحبة قد كانت السبب في نفور الأزواج الشبان الذين يحلمون بأطفال متوردي الوجنات، ممتلئين صحة، ذوي عيون زرقاء صافية وثغور كالبراعم.

لكن مهما كانت الأسباب، فقد كانت طفولتها سلسلة من الذكريات عن بيوت التبني، أماكن جيدة، في معظمها، صالحة، ويشرف عليها اناس خليقون بالمهمة المناطة بهم، لكنهم ظهروا وغابوا من حياتها كالرمال المنسابة من بين أناملها. مادلين الطفلة تعلمت باكراً أن ليس هناك من اتحاد دائم؛ لا عاطفة، مهما تناهت في صدقها، تدوم. ومادلين الشابة لا تجد سبباً يدعوها لأن تتحول عن معتقدها هذا. العلاقة الوحيدة التي أتيح لها أن تسبر غورها كانت تلك القائمة بينها وبين تلك الآلة الجامدة، البيانو، مع أن معظم الناس قد يعتبر هذا اعترافاً مأساوياً لحياة فارغة، مادلين لم تنعم بأكثر من ذلك، وقد كان كافياً بالنسبة لها.

فأمها الأولى بالتبني كانت قد أجلستها على مقعد البيانو عندما كانت لا تزال طفلة تحبو. وقد كوفئت في حينها بابتسامة فيها الكثير من الدهشة والشفقة من راعيتها الوحيدة الصغيرة. فلوحة البيانو بمفاتيحها البيضاء، والتي كانت تبدو لها كأسنان شريرة، راحت تعطي الحاناً سحرية

مدهشة، وهكذا عشقت مادلين تلك الآلة ووقعت في غرامها.

الظروف التي رافقت حياتها لم تكن لتسمح لها بغير القليل من الدروس الأساسية، ولكنها كانت كافية. متسلحة بمعظم التعليمات الأساسية، لقنت مادلين نفسها العزف لأسياد الموسيقى، باخ، وشوبان، وبيتهوفن وموزار، والآن، وهي في ربيعها الخامس والعشرين، أصبحت بارعة بصورة تكفي لتقوم بمحاولة تدريس الأطفال ما اضطرت أن تدرّسه لنفسها. وقد كانت على العموم راضية، أو على الأقل هكذا كانت حتى السنتين الماضيتين. حين بدأت تعزف موسيقى الياس شيبرد، وعلى حين غرة، وقعت في الحب للمرة الثانية في حياتها.

مجرد ذكر اسمه يجعلها مرهفة. فتحت عينيها الواسعتين الرماديتين اللتين كانتا أشبه ببراري المناطق الباردة. رمقت المسرح المشع بأنواره، بعيداً أمامها، وشاهدت أحد العمال وهو يفتح غطاء البيانو الضخم، ويجهز منصة الموسيقى ويتفحّص الميكروفون على المنصة إلى يمين المسرح.

سوف تبدأ قريباً مباراة الياس شيبرد السنوية الأولى للعزف على البيانو، وستصدح قاعة المحاضرات، لهذه الأمسية على الأقل، بموسيقاه.

بل موسيقاها هي، لأنها هكذا صارت تنظر إلى أعماله الجديدة،عروض الألحان، موسيقى الأفلام والأغاني الشعبية جعلت منه إنساناً مشهوراً. ولكن فجأة، ومنذ ما يقارب السنتين، تغيرت طبيعة الموسيقى التي كان يعزفها، وصارت أكثر اصطباغاً بالحزن. شعرت بصدى يأسها

يدّوي في ألحانه الحزينة والمثيرة للمشاعر، وسمعت رجع وحدتها في صوت الأنغام؛ كأنه كان يحدثها عبر موسيقاه؛ وكأنها هي الأخرى تكلمه حين تعزفها. للأسف، العالم لم يشاطرها رأيها. فقد حمل النقاد على آخر أعماله الموسيقية بالنقد والتجريح، وتوقف منتجو الإذاعة والتلفزة عن الاستعانة به لإستخدام موسيقاه في أفلامهم ومسرحياتهم، ولم تعد الجماهير تحتشد لحضور حفلاته.

«جوناثان باركس؟» وجاءت المناداة من المسرح الذي راحت أنواره تخبو رويداً رويداً فيما أخلى أحد المتبارين مقعده وسط القاعة ومشى بخطى ثابتة في الممر.

تململت مادلين قليلاً في مقعدها وشدت على ذراعي ذلك المقعد، وقد استعادت هدوءها، لكن عينيها شعّتا بانتظار ما سيكون.

كان جوناثان باركس رجلاً طويل القامة، نحيل الوجه، ذا شعر طويل أشقر، وقسمات بارزة ـ الصورة النموذجية لعازف البيانو الطموح فيما يجلس أمام الآلة، رأسه مردود إلى الخلف وأنامله الطويلة مترامية على المفاتيح.

أغمضت مادلين عينيها للنغمات الأولى المتألقة، متهيئة للانتقال مع الجمال البائس لإحدى مقطوعات شيبرد، لكن بعد فاصلة موسيقية، فتحت عينيها وتجهمت. كان باركس يعزف المقطوعة التي أخطأ في اختيارها. ببراعته المشهودة، كان لا يتبع التوقيت الصحيح مدخلاً عاطفة مفرطة لم تكن متناسقة مع روح القطعة في سهولتها وايقاعها.

أخيراً أنهى باركس مقطوعته. فتبعه متبار آخر، وآخر،

www.Rewity.com

فآخر، إلى أن توقفت مادلين عن سماع الموسيقى الصادحة من المسرح وسمعت الموسيقى فقط في ذهنها، كما يمكن أن تعزفها.

أخيراً، وبعد ساعات، جاءت المناداة على اسمها. «مادلين شمبرز؟» خصائص المسرح الصوتية قد امتصت اسمها لتجعله أكثر رونقاً.

«أنا هنا.» وقفت مادلين بتؤدة وقد تصلبت بعد جلوس طويل. فقد كانت تقريباً آخر المتبارين. ولمحت، وهي تدنو من المسرح، أن القاعة قد باتت خاوية تقريباً.

«هل أنت جاهزة، يا آنسة شمبرز؟» جاءها الصوت من وراء وهج الأضواء في مقدمة خشبة المسرح فيما كانت تجلس أمام البيانو. صوتاً أنثوياً ناعماً واختير خصيصاً للمناسبة، لتهدئة أعصاب المتبارين المرهقة.

«نعم.» أومأت مادلين برأسها وهي تبتسم باحترام كلي أمام الآلة الموسيقية الرائعة، والتي كانت تختلف عن آلتها القديمة في البيت.

هذه القطعة مهداة لك، يا سيد شيبرد، فكرت بصمت. أتعرفت عليها أم لا، ولكن هذه هي الطريقة التي ستصدح بها موسيقاك.

لمست أناملها المفاتيح في مداعبة لطيفة، وأصلحت جلستها قليلاً إلى أعلى، وبدأت، فيما روح إنسان لم تكن قد التقته، تنبعث من بين يديها.

في الصف العاشر من القاعة، بدا الهدوء فجأة على وجه رجل فيما عيناه الخضراوان الداكنتان مسمرتان إلى المسرح.

• • •

بعد ساعتين، كانت مادلين في شقتها الصغيرة المؤلفة من غرفة نوم واحدة وشرعت في تبديل حذائها ذي الكعب الواطىء ومئزرها الأسود، وانتعلت خفاً ولبست فستانها الأبيض المجعد. وأزالت الاصباغ عن وجهها، ثم وقفت أمام المرآة في غرفة نومها وراحت تمشط شعرها، إلى أن أصبح شبيهاً بهالة متكسرة حول كتفيها وقد خبا لونها.

توقفت وسط حركاتها النظامية المتكررة، وضاقت حدقتاها وهي تتفحص رموشها الداكنة الكثيفة حول عينين كالأحجار الرمادية المثلجة. لم يكن يعيبها أن يكون شعرها وعيناها وبشرتها فاتحة اللون حتى الشفافية، برغم أن رموشها الداكنة تبدو كأنها تعود لشخص آخر...

تنهدت وهي تتحول عن المرآة، وقد آنست ارتياحاً في شقتها بعيداً عن نظرات الغرباء.

لم تكد تخطو وسط فوضى أثاثها في الصالون وهي في طريقها إلى المطبخ، حتى سمعت قرعاً عنيفاً على الباب. فتغيرت ملامحها.

شدت على حزام مئزرها ومشت إلى الباب وفتحته قليلاً بتردد، وألقت بنظرة خاطفة من جانب الباب.

«مبروك.»

ارتفعت عينا مادلين قليلاً إلى أعلى لتطلا على قسمات رجل في الظلمة لم تره من قبل. فقالت وهي تنظر بعين واحدة في الضوء الخافت في الرواق: «أستميحك عذراً؟»

«لقد قلت مبروك، فهذا لك.»

كان ممسكاً بمغلف أبيض لم تستطع تمييزه. وبحركة

www.liilas.com

يسيطة من رأسه استطاعت مادلين أن تتبين عينيه وقد غمرهما النور، فحدقت فيهما، وقد سحرها لونهما الأخضر المفرط في بريقه، لا يمكن أن تجد له مثيلاً إلا في خضرة البساتين في عز ربيعها.

أخذ تحديقها الصامت إليه بعض الوقت، وهو على ما يبدو قد آنس به. ثم أحنى رأسه قليلاً. «يوجد شيك بقيمة كبيرة من المال طي هذا المظروف يا آنسة شمبرز.»

تنهدت مادلين وقد تقوّس أحد حاجبيها. «حقاً؟ حسناً، إنه شيء بديع، ولكنني لست بصدد بيع أي شيء، شكراً.»

ظهرت على وجهه ضحكة فيما كانت تهم بإغلاق الباب. «إنها الجائزة الكبرى لمسابقة العزف يا آنسة شمبرز. أنتِ فزت بها.»

توقفت أنفاسها وضاقت حدقتاها وقد ارتابت للأمر. «هذا مستحيل. لقد قيل لي إن النتيجة ستبلغني بواسطة البريد.»

«كل المتبارين الآخرين سيبلغون بواسطة البريد. اما الفائز الأول فيتسلّم جائزته. ألا توافقينني الرأي؟»

أحست مادلين أن قواها قد بدأت تخونها وهي تحاول استيعاب النبأ وتتذكر القيمة المالية للجائزة الأولى. «أحقاً ربحت؟» همست وتضايقت من تهدج صوتها، لكنها لم تستطع التحكم بنبرته: «هل أنت متأكد؟»

«بالطبع. أنا جازم في ذلك.»

أومأت برأسها ببطء، وقد تخدرت أفكارها. فقد كانت تحلم بأحلام عادية جداً فيما مضى ولم يخطر ببالها فكرة أن يكون الياس شيبرد قد اصطفاها للمركز الأول، هذا

فضلاً عن إرسال أحدهم لتسليمها الجائزة في تلك الليلة.

تنبهت فجأة إلى أنه لا يزال واقفاً في الرواق، ففتحت الباب على مصراعيه. «أرجوك، تفضل.» قالت، وأشارت بيدها إلى بعض الأرائك والكراسي التي كانت محتشدة في إحدى زوايا غرفة الجلوس وقد بدت هزيلة في حجمها أمام البيانو الضخم الذي اقتصدت كثيراً كي تبتاعه: «تفضل بالجلوس، فقد كنت في صدد تحضير بعض القهوة الإيرلندية...»

اختنقت العبارات في حنجرتها حين استدار فجأة ليواجهها، فوقع نظرها عليه للمرة الأولى وقد غمره النور. وعلى الفور، على الرغم من أنها لم تلتقيه قبلاً أو ترنو إلى صورته، لقد عرفته، إنه الياس شيبرد. فما كان يجذبها في موسيقاه وجدته في وجهه، وقد أدهشتها سرعتها في التعرف عليه. فقد كانت متيمة بفكر الياس شيبرد وروحه اللذين كانا وراء موسيقاه خلال السنتين الماضيتين، إلا انها لم تكن لتتوقع أن ترتسم تلك الروح على وجه رجل.

«أنت الياس شيبرد.» تمتمت وهي تخشى، أن ترف عيناها فتزول الرؤية من أمامها.

حملق بها إلى ما بدا أنه زمن طويل، ثم هز برأسه. بدا في تعابير وجهه الداكنة، حزيناً مثل موسيقاه، بحاجبين كثيفين فوق عينيه الخضراوين الرائعتين وفم مشقوق وسط فكه المربع. إلا أنها أحست أن هناك شيئاً ما وراء تلك الصورة القاتمة ـ شيء نظيف وبراق وقاسٍ، جعلها تفكر بلمعان أشعة الشمس فوق المحيط.

دهشت حين تكلم وتساءلت كم مضى عليها وهي واقفة هناك، تحملق به في صمت. «تبدو القهوة في أوانها. شكراً.»

«أنت على الرحب والسعة.» أجابت بصوت خال من التعبير إلا أنها بقيت ساكنة، عاجزة عن رفع نظرها عنه. وأخيراً أجبرت نفسها على الذهاب إلى المطبخ.

تحضير القهوة الإيرلندية أمر سهل، قامت بتحضيرها مئات المرات قبل ذلك، إلا أن عملية تحضيرها تلك الليلة كانت معقدة، ومتجاوزة قدراتها.

عندما عادت إلى غرفة الطعام، وجدته جالساً على الأريكة، وهو يتابع بنظره اقترابها بارتباك حذر. وتلامست أناملهما للحظة وهو يتناول كوب القهوة من يدها. أما هي فغرقت في كرسيها مقابل الأريكة وقد أربكتها الحرارة التي سببتها ملامسته.

راحا يرشفان القهوة من كوبيهما حين قال: «لقد هزني أداؤك اليوم.»

اهتز رأسها لصوته المتماوج في بحة. تجنبت عينيه، وركزت على شعره الأسود المرفوع وراء أذنيه والملفوف على مستوى ياقة القميص الأبيض الذي، تراه للمرة الأولى؛ حله عند العنق وأرخى ربطة العنق ليضعها جانباً.

«لم تشتركي في مباراة كهذه قبلاً، أليس كذلك؟»

«كلا.» بدأت تهز رأسها، ثم كان عليها تذكير نفسها بالتوقف. «وهل كان ذلك واضحاً؟»

«بالطبع لا.» قال وهو يحاول أن يبتسم: «أنا أتابع كل المباريات. ولكنت تذكرت عازفة مثلك.»

أخذت مادلين رشفة أخرى من الشراب وشعرت بالدفء يسري في حنجرتها. «أنا في الحقيقة مدرّسة بيانو ولست بعازفة.»

ابتسم هذه المرة ابتسامة خفيفة. «ولم يكن شكسبير بأكثر من كاتب.»

لم تتح لحدقيتها أن تتسعا بعد تلك المقارنة الصارخة في محتواها، إذا عاد ليصدمها ثانية.

«أريد أن استخدمك، يا آنسة شمبرز. أريدك أن تعملي معي دواماً كاملاً في مشروع مهم، تعزفي موسيقاي، أو ربما تسجيلها، إذا اقتضى الأمر.»

ترددت هنيهة. «حسناً.»

«حسناً؟ أهذا كل ما عندك لتقوليه؟»

تجهمت مادلين وهي لا تدري ما تفعل، فيما انطلق لسانها ليبلل شفتها السفلى وهي تتساءل لِمَ ردها قد أدهشه.

«ألا تريدين أن تسألي عن الأجر؟ وشروط العمل؟ أي شيء آخر؟»

هزت برأسها غير مكترثة. وقالت: «إنك الياس شيبرد.» كأن هذا كان يفسر كل شيء.

تفحصها بهدوء للحظة. «ماذا تعرفين عني؟»

«كل شيء.» همست، ثم قطبت جبينها وقد فقهت كم كان أحمق ما تفوهت به: «لا شيء.» أردفت بارتباك.

«أيهما الجواب الصحيح؟»

نظرت في كوبها وقد تغضن حاجباها الشاحبان، وعضت على شفتيها وقد تملكها الرعب. ماذا تعرف عن

الياس شيبرد؟ فقد كان اطلاعها على موسيقاه خجولاً: ألحانه الاستعراضية، وأغانيه الشعبية، وموسيقى الأفلام التي كتبها على مدى العشر سنوات الماضية، لم تؤثر عليها. «إني على اطلاع فقط بالموسيقى التي كتبتها خلال السنتين الأخيرتين. هذا كل شيء.»

«هذا كل شيء.» قال بهدوء. وشعرت في أعماقها بشيء يخفق بقوة.

«حسناً.» سمعته يقول بعد لحظة: «هذه القواعد الأساسية. سنعمل في روزوود، بيتي في الجبل. فهناك لن يزعجنا أحد.» حاولت الابتسامة أن تجد زوايا فمها. «عليك أن تتركي بيتك، ورفاقك، وأهلك، وتلامذتك، وحياتك الاجتماعية، كل حياتك، في الواقع، طالما العمل يدوم.»

أومأت برأسها بصمت، وهي تنظر إلى كوبها وتتساءل كيف بإمكانها احتواء كل هذه السعادة؛ وكيف لها أن تبقى جالسة وهي تتكلف الهدوء في حين أنها تريد القفز والصراخ و...

«سوف تكون الساعات رهيبة، فأنا عديم الصبر، حاد الطبع ويستحيل العمل معي...»

جازفت مادلين بنظرة إلى أعلى، إلى حيث مخرج صوته الخشن: «في الحقيقة، الشيء الوحيد اللائق في هذا العمل هو الأجر. أستطيع أن أعدك أنه سيكون ممتازاً.»

راحت مادلين تحدق في شرخ بارز في ورق الجدران خلفه وهي تبتسم لما كان يعتقده مهما من أمر الساعات وشروط العمل والأجر. كيف عليها أن تخبره؟ وكيف لها أن تفسر له أن موسيقاه هي أملها الوحيد في حياتها الرتيبة؟

وأنها أحست بانتمائها إليه منذ اللحظة التي بدأت تعزف فيها موسيقاه؟ وما هجران حياتها من أجل اللحاق به سوى الجانب الشكلي للإلتزام المعنوي والروحي الذي كانت قد قطعته على نفسها منذ زمن طويل.

قالت أخيراً بهدوء وهي تحاول التحكم بعينيها: «لقد عرضت عليّ عملاً، وأنا قبلت به، فهل أنت تتراجع عن عرضك الآن؟»

راح يتفرس وجهها وكأنه يفتش عن علامة وهن فيه. «لا.» قال أخيراً: «فلا يزال العرض قائماً. لست هازلاً.»

«حسناً.» أومأت برأسها بحزم ولسبب ما أحبطت ثقتها عزيمته.

راحت حدقتاه الخضراوان تضيقان قليلاً وقال محذراً: «نحن لسنا في مجال اللهو، يا آنسة شمبرز. موسيقاي هي الشيء الوحيد الذي يهمني. ليس لدي الوقت أو الرغبة في أن أدغدغ عواطف النساء. في الحقيقة، لا أطيق صبراً على التعاطي معهن. والعمل معي هو الاقتراح الوحيد الذي لدي.»

نظرت مادلين إليه بهدوء وهي تحاول أن لا تبتسم. «حسناً، يا سيد شيبرد، لقد ربحت. كم تريد لقاء عملك؟ أنا سأدفع لك.»

استغرق في ضحكات خرقاء ناشزة حتى كادت أن تتساءل في ما إذا كان ضحك قبل ذلك، ثم قال وخيال ابتسامة لا يزال مرتسماً على زوايا ثغره: «حسناً، يا آنسة شمبرز، وضبي أغراضك، لمغادرة المدينة لفترة من الوقت...»

«كم من الوقت؟»

«هذا يتوقف على أمور كثيرة. قد يكون لشهر...» توقف لحظة وهو يبحث في وجهها عن تعبير غريب: «أو لأكثر.»

نظرت إليه من دون أن تتفوه بشيء وقطّب جبينه عندما لاحظ شيئاً على وجهها.

«أعتقد اننا سننجح بالعمل معاً، يا آنسة شمبرز.» وانحنى قليلاً إلى الأمام، أمسك بإحدى يديها ووضعها بين يديه وشرع يقلبها ضمن راحتيه وهو يتفرس فيها بإعجاب وكأنها قطعة ثمينة بين يديه. وكانت ملامسته لها متجردة، فقد كان في صدد تفحص الآلة التي ستنجز موسيقاه، أما هي، ربما لذلك السبب، لم تمتعض كما كانت تفعل لدى ملامسة أحد ما لها.

«أعطني يدك الأخرى.» أمرها من دون أن يرفع نظره.

وضعت فنجانها على طاولة قريبة منها ومدت له يدها الأخرى صاغرة. أمسك بهما بين راحتيه وبسط أنامله تحت أناملها لتبسط أناملها هي أيضاً. كانت بين يدي طبيب يقوم على فحصها، وراحت تراقبه وهي غافلة وكأنها قد سلخت عن تلك الأجزاء من جسمها التي كان قد لمسها.

وسألها فجأة: «ما هو مدى أصابعك؟»

«عشرة مفاتيح.» مطت أناملها على وسعها فوق راحته لتبيان ذلك، وفجأة، من دون أي إنذار، حدث شيء.

شعرت بأطراف أناملها وكأنها تحترق وهي ترسم خطوطاً من اللهب على طول راحتيه الدقيقتين. وبدا واضحاً أن الشعور عينه قد انتابه، إذ جحظت عيناه وقد أثقلتهما الدهشة تماماً كما فعلت عيناها، وانسحب في سرعة خاطفة متنفساً بصوت مسموع.

جمدت مادلين في مكانها عاجزة عن الإتيان بأية حركة وهي مأخوذة بالإشارات العجيبة التي كانت تتسابق طرداً وعكساً من يديها إلى دماغها، إضافة إلى طبيعة نظرته المغناطيسية. وراحت حدقتاه تتسعان حتى كاد اللون الأخضر أن يزول تاركاً مكانه لوناً أسود على شكل دائرة. ولسبب ما أرعبها كل ذلك.

أخلت يداها من قبضته بخوف ظاهر وعيناها متسعتان من الدهشة.

بقيت عيونهما معلّقة في نظرة طويلة، وأخيراً أغمض عينيه، وتحول برأسه بعيداً عنها ورفع منكبيه إلى أعلى وكأن شيئاً لم يحدث، وفي حال حدث، فهذا غير ذي بال.

«كوني جاهزة في العاشرة من صباح غد.» قال بإختصار، ووقف عند الباب. تقريباً قبل أن تتنبه لحركته.

«سأريك روزوود، ثم نعمل على التفاصيل.»

فيما كان يهم بولوج الرواق، استدار وحدق إليها وهي ما تزال جالسة حيث تركها. أما ملامحه فكانت قاتمة وواعدة وكأنها توجه إليها إتهاماً خطيراً.

«لا أعتقد اني سمعت عزف موسيقاي حقيقةً إلا يوم سمعتك تعزفينها.» قال وفي نبرته إشارات وعيد: «لن أسمح بشيء آخر أن يتعارض مع ذلك.»

أما مادلين فقد بقيت لفترة طويلة بعد مغادرته وهي ساكنة في كرسيها، تحملق في يديها.

الفصل الثاني

استيقظت مادلين في صباح اليوم التالي وقد غمرتها مسحة من الحزن. وأجفلت لدى سماعها ضوضاء السيارات في الشارع، ونظرت شزراً إلى نور الصباح الغريب في اشعاعه وهو يدخل من خلال النافذة. على الرغم من خفة وزن الدثار، شعرت به ثقيلاً لا يحتمل فوق جسمها. فبدأت بإزاحته جانباً، ثم توقفت، وقد تجهمت أساريرها وهي لا تزال مستلقية على فراشها، تحاول أن تتذكر متى انتابها هذا الشعور قبل اليوم، علها تقبض على تلك الذكرى المحيرة المختبئة في تلافيف دماغها.

لقد كان ذلك منذ زمن بعيد... لقد علمت ذلك... جيداً، إلا أنها لم تستطع أن تتذكر أوان حدوثه. فقد كان أشبه بشعور طفل صباح عيد الميلاد، إلا أنه لم يكن الميلاد. مهما يكن، فقد كان أمراً أكبر من ذلك وأكثر منه وعداً.

قطبت جبينها، وهي تستجمع ما انقضى من ذكرى، إلا أنها عافت كل ذلك لتستسلم للنسيان. فهي ستعمل من الآن فصاعداً مع الياس شيبرد، وستعزف موسيقاه وستسكن معه في بيته، وستشهد معجزة خلقه الموسيقي. وقد كان التبصر في كل ذلك جل ما تستطيع فعله.

إرتداؤها الثياب السوداء لم يكن متعمداً، ولكنها أومأت برأسها علامة الرضى وهي تتفحص انعكاس صورتها في

المرآة بعد أن ارتدت ملابسها، إنه يوماً أساسياً في حياتها، وأصبح من اللائق أن يعكس مظهرها الخارجي احتفالية المناسبة.

انتعلت حذاء أسود وارتدت بنطال جينز ضيقاً، وقميصاً من الصوف يصل إلى أعلى رقبتها في تحدٍ منها لبرد فصل الربيع الذي اقترب حلوله. فهي لم يكن عندها ما يناسب من الثياب للإقامة في بيت جبلي، إلا ما يجب عليها ارتداؤه لعبور الطرق الموحلة والحقول المليئة بالأشواك، والتي كانت قد رأتها في الصور وقرأت عنها في الكتب. فقط شعرها، افسد الصورة الرزينة. رفض البقاء على شكل هامة متعالية، فثار حول كتفها في خصلات ساكنة براقة وبدا عبثياً بسخافة. وكعادتها في كل مرة، تناست مادلين كل شيء عن مظهرها الخارجي في اللحظة التي تحولت فيها عن المرآة.

في تمام الساعة العاشرة فتحت الباب لدى سماعها طرقة شيبرد الحازمة، فابتسمت بارتباك. لقد كان مختلفاً تماماً عما كان عليه في الليلة الماضية.

لقد ارتدى معطفاً خفيفاً فوق كنزة من الصوف بلون الزهر الداكن، مصنوعة من وبر الأرنب، أو من صوف الغنم، أو غيرها من الحياكات الثمينة التي تجعل المرء يرغب في لمسها، وقد أسبغ هذا اللون على وجهه حالة من الدفء أخفت حزنه الذي بدا عليه في الليلة الماضية. أما شعره فبدا صبيانياً، وقد ردته ريح ربيعية رعناء إلى الوراء، في حركة مفاجئة، كموجة لطيفة متماوجة فوق جبينه، فالتف حول أذنيه هازئاً

بما كان عليه في الأمس بتصفيفته الزلقة، المردودة إلى الخلف.

«تبدو مختلفاً.» بادرته بنبرة حادة.

«وأنتِ أيضاً. تبدين رائعة في الأسود.» كانت ملاحظة محض شخصية، لم تستعد لها. ولم تكن مستعدة لنظرته الثاقبة وتأثيرها عليها. فقد كان ذلك يشبه إلى حد بعيد تلك اللحظة الغريبة في الليلة الفائتة حين تحولت العلاقة بينهما، من منطقة الأمان الروحي إلى منطقة الخطر غير المألوف للجسد. وهذا ما يفسر ردة فعلها العنيفة حين مد يده إليها قائلاً: «هل نذهب؟»

كان سؤالاً بريئاً، لم يخدشها في مضمونه، إلا أنها شعرت على الفور بطعنة من الشعور الذي لازمها في طفولتها، شعور أملت أن لا تختبره مجدداً، لأنه كان يحمل في طياته احتمال خيبة أمل.

حملقت بحزن في يديه الممدودتين وهي تتذكر تينك اليدين اللتين امتدتا إليها في الماضي من أمثال الاندرسن والكروغرز والميلرز وغيرهم من الأوصياء المؤقتين الذين جاءوا بها إلى بيوت هي أيضاً مؤقتة. «هل نذهب يا مادلين؟» كانوا يسألونها جميعاً ويأخذون بيدها ويملأون قلبها أملاً في أن بيتهم سيكون مقرها الدائم وفي أن حبهم لها هو الأبقى على الدوام، إلا أن ذلك لم يكن ليحصل، لأن لا شيء يدوم إلى النهاية.

«مادلين؟» كان يمعن نظره في وجهها وقد تغضن جبينه. «هل من خطب؟ هل غيرت رأيك؟»

تنهدت مادلين بعمق واجبرت نفسها على ابتسامة

خجولة، ومدت أناملها إلى راحة يده. «لا.» قالت بهدوء: «لم أغير رأيي.»

«هل أنتِ متأكدة، أنك جاهزة؟»

«أنا مستعدة.» قالت بحزم، فيما كانت تتساءل إذا كان ذلك هو أهم سؤال قد طرح عليها في حياتها أو بدا لها كذلك.

قاد الياس السيارة بصمت إلى عنوان في الايست سفنتيز وهو أحد الأحياء العصرية ذات الأرصفة المرصوفة والأبنية المرممة من الحجر الرملي الأسمر والقرميد الأحمر. وهي مختلفة عن زحمة مانهاتن المجنونة، مثل بعد المسافة بين المكانين.

ترجلت مادلين من السيارة فيما الياس يحاول مساعدتها قائلاً: «هذه هي الوقفة الأولى. هناك شخص أريدك أن تتعرفي عليه قبل أن نتابع سيرنا إلى روزوود.»

عبث النسيم بشعره مضيفاً عليه شكل شاب هازل فيما هما يرتقيان الدرج الموصل، إلا أن ذلك لم يكن إلا مجرد وهم من نسج الخيال. فلا شيء كان يدل على ذلك على كل تعابير وجهه، وهو يدق على الباب بالمطرقة النحاسية المصنوعة من الحجر الرملي. كما أن لا شيء من طيش الشباب بدا في عينيه الخضراوين واللتين كانتا تثنيان عليها بصمت وهما منتظران في الردهة.

فتح الباب رجل، مثل آلاف الرجال، فكرت مادلين، ومع ذلك شعرت بأن الباب قد فتح على منظر خلاب لإشراقة شمس يصعب التحديق إليها.

تعلقت نظرات الرجل بنظراتها، فتوردت وجنتاها خجلاً ولم تستطع تفسير ما حصل. وغمغم من دون أن

يحول بصره عنها ولو للحظة: «مرحباً، الياس.»

رد الياس بغمغمة مبهمة، فيما ظلت مادلين محملقة في الرجل الواقف في الرواق. كل شيء فيه كان يبعث على الاطمئنان، شعره ذو الخصلات البنية فوق عينين مرحتين ضاحكتين. ابتسامة طبيعية تقول بأن الشفاه خلقت للابتسام ليس إلا. على الرغم من انزعاجها، فقد ردت مادلين على ابتسامته بمثلها، غير قادرة على أن تفعل أي شيء آخر. لقد ملأ شغاف قلبها قبل أن ينبس ببنت شفة.

أدهشها كيف كان ممسكاً بيديها الاثنتين وهو يشد عليهما برقة. «أنت ساحرة، يا مادلين. يا آلهي، يا الياس، شعر ملائكي وملامح سحرية. إنها رائعة!»

أما هي فلم تدر أتضحك أم تعبس لإطرائه المستفيض هذا.

«لا تكن سخيفاً، يا دافيد. إنها عازفة بيانو، لا عارضة أزياء. وما هو رائع فيها، كامن في يديها. إلقِ نظرة عليهما. فلديها إبداع عظيم.»

بقيت يداها مغلولتين بشدة في يديه. وابتسمت بارتباك فيما كان يأخذها برفق إلى الداخل ويغلق الباب خلفه.

«والله، يا الياس، أحياناً أعتقد أنك مت منذ زمن ولم تدفن. امرأة كهذه، وتريد مني أن أنظر إلى يديها!»

رفّت عيناها وهي تحدق به وقد ادهشها ما كان يتفوه به. فقد كانت كاللعبة المطواعة المتخدرة، الفاقدة لحسها، عندما أخذ بيدها المطوية عند المرفق باستئثار ظاهر، وقادها إلى غرفة الجلوس المفروشة بفخامة حيث يوجد كرسيان مزدوجان متقابلان في مواجهة موقد للنار. شاهدت على الطاولة المنخفضة بينهما، فنجانين للقهوة

وصينية فضية، وضع عليها حلوى صنع هولندا. قادها دافيد لتجلس بجانبه، وعلى الرغم مما كان يثيره التقارب من رجل من انزعاج إلا أنها شعرت بالارتياح بالقرب منه.

قام الياس بتقديم دافيد لها: «مادلين شمبرز، أقدم لكِ دافيد ويتني، مديري.»

«والنصف الدافيء والودود لتلك الشراكة.» أضاف دافيد: «نوع من التوازن أمام هذا العبقري الشرير، إذا فهمت قصدي.»

عبس الياس في وجهه. «حدثها عن المشروع، يا دافيد. فمن أجل ذلك أحضرتها إلى هنا.» سكب لنفسه فنجاناً من القهوة، ثم وقف فجأة. «سأقوم ببعض الاتصالات الهاتفية قبل أن نغادر إلى روزوود.»

راقبه دافيد حتى غادر الغرفة ثم انشغل بسكب القهوة. اعطى مادلين فنجاناً، وهو يستدير نصف استدارة، مثنياً عليها بضحكة غريبة: «يا إلهي، تعزفين على البيانو، أيضاً؟»

قطبت جبينها وهي تنظر إليه من فوق حافة فنجانها، مستغربة سؤاله. فما كان منه إلا أن ضحك لسبب ما.

«أنتِ واحدة من مليون، أليس كذلك؟ أشعر وكأني أمام نعجة بين يدي ذئب شرير. العمل مع الياس لن يكون سهلاً البتة، كما تعلمين.»

«هذا ما قاله لي.»

«تلك هي الحقيقة بعينها. لقد أصبح ناسكاً حقيقياً خلال السنتين الماضيتين، وإن كان قد تعلم قليلاً كيف يتعاطى مع الناس، فإنه الآن نسي ذلك من دون شك.

www.Rewity.com

فالموسيقى هي كل ما يهمه في هذه الحياة الدنيا.»

«أعلم ذلك.»

تجهم وجه دافيد وهو يتململ في كرسيه مغيراً جلسته. «الغرابة في الموضوع هو موافقتك للعمل معه بهذه السرعة... لست مغرمة به أو شيء من هذا القبيل، اليس كذلك؟»

اتسعت حدقتاها وكادت أن تختنق وهي ترشف قهوتها. «يا إلهي، لا. فنحن ما كدنا نلتقي. أنا فقط... أنا فقط... من عشاق موسيقاه، ليس إلا.»

نظر دافيد إليها بإمعان. «إن الياس نسخة عن موسيقاه.»

عضت على شفتيها بتوتر، وهي حائرة فيما تقول.

حاول أن يبتسم، ثم غير الموضوع فجأة: «مهنته متوقفة على مشروعه هذا، كما تعلمين. ونوعاً ما، عليك أيضاً.»

«عليّ؟» همست مادلين: «ماذا تعني؟»

شرب دافيد ما تبقى في فنجانه وكأنها جرعة شراب وأعاد الفنجان إلى الطبق. شعرت مادلين كيف كان يزن كل كلمة بتؤدة قبل أن يتكلم: «لقد مر وقت لم يستطع فيه أن يؤلف، ليلبي كل الطلبات المنهمرة عليه. كل الفرق الموسيقية كانت تريد أن تسجل له، وما من منتج إلا وكان يريد شراء اسطواناته...» تنهد وارخى كتفيه. «... ثم بعد ذلك بسنتين تغير كل شيء. المشكلة تكمن في أنه لا يفقه السبب. لا يستطيع أن يتبين الفرق بين ما تعود أن يكتبه من الحان أحبها الجمهور، وبين ما يكتبه الآن. اعتقد بأن عازف البيانو الكلاسيكي عليه أن يتلوّن مع

مقتضيات العمل. ولهذا السبب قام بتكفل المباراة.»

كانت مادلين شاردة، تفكر كيف أنها بدأت تعشق موسيقاه فيما الآخرون أخذوا يكرهونها. «وماذا حصل بعد ذلك بسنتين؟» سألت.

نظر إليها دافيد لبرهة ثم قال بصوت منخفض: «لقد أنهى زواجه.»

جعلت تلك الكلمات مادلين تفكر لبرهة. فلم يطرأ على بالها، قط، بأن يكون مبدع الموسيقى والذي أحبته كإنسان سرمدي هو في الحقيقة إنسان كباقي البشر.

قالت بهدوء: «لم أكن أعلم أنه كان متزوجاً.»

«لقد كان كذلك... لوقت ما. وبانتهاء الزواج انتهت أشياء كثيرة بالنسبة له، تغيرت موسيقاه، تغيرت حياته...» أبعد بقية الفكرة واجبر نفسه على الابتسام بطريقة مشرقة: «إلا أن ذلك كله أصبح جزءاً من الماضي، ويفترض بنا أن نتكلم عن المستقبل الآن.» أعاد سكب القهوة في كوبيهما واستدار على كرسيه المزدوج ليواجهها. «ستعملين على اسطوانة معدة لأحد الأفلام، فالمنتج صديق قديم لالياس، والحقيقة أنه سيخاطر مخاطرة كبيرة في إعطاء الياس هذا العقد، آخذاً بعين الاعتبار النمط الموسيقي الذي بات الياس يكتبه للعامة مؤخراً. فالجميع أضحى في كره له.»

«أما أنت فلا، اليس كذلك؟»

هز دافيد بكتفيه وحول نظره بعيداً بحركة خرقاء. «أحياناً... ليس غالباً، لكن أحياناً... أستمع إلى ما يكتبه وأعتقد أن له القدرة على أن يكون من الموسيقيين العظام. هل تعلمين ذلك؟» رمقها منتظراً جواباً.

www.Rewity.com

«إنه واحد منهم، على ما أعتقد.» قالت بهدوء.

إرتفع حاجباه قليلاً مما أضفى عليه منظراً وقوراً سرعان ما زال. «من الوجهة التجارية، عليك أن تكوني جيدة التسويق كي تصبحي عظيمة.»

«أعتقد أن في ذلك نوعاً من الجشع. وماذا بشأن... *الفن من أجل الفن؟*»

هز بكتفيه مستنكراً: «عندما يروق الفن للجميع، وعندما يلامس كل قلب، فتلك هي العظمة، أليس كذلك؟ وهذا ما فقده الياس في موسيقاه... هذا الشيء المحيّر الذي يدغدغ شعور الناس. فلا أحد ينكر براعته التقنية في العمل، إلا أن العديد من الناس يعتقدون أنه من دون قلب، من دون مشاعر على الإطلاق.»

ابتسمت مادلين بحزن. «إذاً فهم لا يستمعون إليه.»

شعرت كم كان دافيد آسف لها، برغم أنها لم تستطع فهم السبب.

دخل الياس عليهما ونظر إلى دافيد ثم إلى مادلين. «لقد اتصلت بالاستديو وأفدتهم بأنه سيكون لديهم نموذج من الشريط في مهلة شهر، مما يعني أن علينا أن نعمل من دون أن نضيع ثانية. يا مادلين. تناولي قطعة حلوى وسنأكل في السيارة في طريقنا إلى روزوود. وسنتكلم في سائر البنود، بعد أن تطلعي على المكان. هل تأتي معنا، يا دافيد؟»

«ليس الآن.» هز دافيد برأسه وهو ينظر إليها بابتسامة خفيفة غير مقروءة على شفتيه. وعندما أدار الياس ظهره متوجهاً إلى الباب، دس دافيد في يدها بطاقته الشخصية وقال ببساطة: «اتصلي بي كلما احتجت لصديق.»

الفصل الثالث

فيما كان الياس منهمكاً في قيادة سيارته وسط زحمة سير خفيفة، صبيحة نهار الأحد، أخذت مادلين تنظر إليه خلسة من مقعدها في سيارته الفخمة. هذا هو الياس شيبرد، اخبرت نفسها مراراً، أحد كبار مؤلفي الموسيقى في هذا العصر، على الرغم من النقاد، وإنك جالسة الآن إلى جانب رجل مقدر له أن يصبح أسطورة.

لسبب ما كانت تلاقي عناء كبيراً في تخيله أسطورة. فهو لا يبدو، من طينة الأساطير، وهو جالس خلف المقود يركز اهتمامه فوق الطريق أمامه مثل بقية السائقين العاديين، إنه إنسان من لحم ودم كسائر الأحياء من بني البشر. وكانت مادلين تشعر بإحباط وهي تدغدغ هذه الفكرة.

«قد لا نعود في وقت قريب.» قال منبهاً ولم يتجاوزا شارعين.

«لا بأس في ذلك. فأنا لا أدرج مواعيد جديدة لتلامذتي في نهاية الأسبوع.»

«أليس لديك مشاريع هذا المساء؟»

أخفت ابتسامتها وقالت: «لم يكن لدي متسع من الوقت للقيام بما يمليه الواجب الاجتماعي.» أردفت بعد تردد بسيط: «كما أنه ليس لديّ موهبة كبيرة في ذلك.»

استغرب ردها وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، وسرعان ما حل صمت مطبق بينهما فيما أخذت السيارة تنهب الأرض

على الطريق العريضة التي تربط كل المراكز الموجودة على خارطة ولاية نيويورك. غابت أخيراً وراءهما آخر نقاط حدود المدينة وبدأت الطريق تنعطف يمنى ويسرى بزوايا منفرجة، باتجاه قمم الجبال المستديرة، السحيقة في قدمها والتي لا يمكن مشاهدتها بسبب بعدها.

استغرقت مادلين في مشاهدة الطبيعة من خلال نافذتها وقد أخذ بمجامع قلبها مشهد الريف وهو يعانق الربيع بعد شتاء طويل قاسٍ. وكانت قطعان الماشية تثب مرحاً في مراعيها الجديدة، وفاضت الجداول بمياه الثلوج المتدفقة في الأخاديد التي حفرتها، أما هدهدة الأوراق الخضراء فقد كانت توحي للمشاهد بأن كل شجرة كانت تتمخض استعداداً لولادة ثانية.

كان المنظر لمن سكن الأبنية الحجرية في المدينة أشبه بسجادة سحرية من عالم الجن، مزدانة بالرسوم والصور، لكن بالنسبة لمادلين، فقد كانت الموسيقى معيارها للجمال حتى أنها كادت أن تنسى كيف تقدر الأشياء الأخرى حق قدرها.

بعد مضي ساعة تقريباً، استهل الياس حديثه الذي كان قد انقطع بينهما منذ مغادرتهما المدينة. «نحن على وشك أن نصل.» قال فيما راحت السيارة تخفف من سرعتها لتلج مخرجاً في موازاة الطريق السريع.

«حقاً؟» رفّت عيناها كمن يستيقظ من شبه حلم. فقد كانت شاردة لمسافة أميال وهي تحدق في مكان ما من أجهزة القيادة أمامها وهي تدندن إحدى مقطوعاته في ذهنها.

أطلت برأسها من نافذة السيارة وراحت تتأمل طريق

الأسفلت الضيق الذي كانت السيارة تنهبه نهباً. ونظرت شزراً إلى خميلة من أزهار الربيع في صفرتها الصارخة والمتكوكبة على جانبي الاسفلت.

رمقها الياس بنظرة، فيما كانت السيارة ترتقي صعوداً إحد المرتفعات ثم تنحدر إلى قرية بدت في منظرها أقرب إلى الصورة الفوتوغرافية منها إلى الواقع المرئي. «إنها برايتون سكوايز.» قال لها، شارحاً فيما راحت السيارة تخفف من سرعتها وصوت عجلاتها الواهن ينبه إلى التحول عن طريق الاسفلت إلى آخر من الحجارة المرصوفة. «بيتي على بعد كيلومتر في الجهة الأخرى من البلدة.»

هزت مادلين رأسها بصمت وعيناها مأخوذتان بروعة المحلات القديمة وبمظلاتها الملونة الممتدة على طول الشارع الرئيسي وإلى أعمدة الإنارة المصفحة بالحديد والتي كانت تعيد إلى الذهن قرناً من الزمن مضى، فيما كانت أزهار التوليب البري تفترش مساحة كبيرة من مرج الضيعة.

فكرت مادلين، وهي تستدير، لا شك في أن كلمة فاتن قد صيغت لأماكن كهذه، ثم استدارت لتشاهد من خلال النافذة الخلفية في السيارة، الضيعة وهي تنسحب وراءها. «إنه لمكان جميل حقاً.» قالت: «لقد بدأت أفهم لماذا تعيش هنا.»

«أعيش هنا لأن هذا يناسبني.» أجابها بنبرة باردة جعلت مادلين تتساءل ما إذا كانت قد أخطأت بما قد تفوهت به.

أخيراً أدار مقود سيارته بخفة ومضى في طريق خاصة ضيقة مصفوف على جانبيها، شجيرات متشابكة أخذت

تورق حديثاً. «هذه روزوود. سترين بيتي بعد هنيهة.»

«لم آت إلى بيت يحمل اسماً قبل الآن.»

تقلصت عضلات فكه لبرهة، عادت بعدها للاسترخاء. «لا تكوّني فكرة خاطئة. فهذا البيت ليس قصراً، أمي كانت مولعة بالأسماء، هذا كل شيء. وقد أعطت اسماً لكل شيء كانت تملكه، بما في ذلك هذا المكان، وقد بقي الإسم ملازماً له بعد موتها.»

«هل كان هذا المكان ملكاً لوالديك؟»

«لوالدتي.» قال مصححاً ومشدداً على ذكر المفرد: «لقد انفصلا بعد ولادتي بوقت قصير، ولم تتزوج أمي بعد ذلك.»

عندما انعطفت السيارة على أحد المنعرجات التي توصلهما إلى البيت مباشرة، استرخت مادلين واتكأت على النافذة والتصق أنفها على الزجاج. قد تتذكر هذه اللحظة فيما بعد، وستكون شاكرة لأن وجهها قد تحول عنه، إذ إنها شعرت بأن قناعها الدفاعي يسقط عن وجهها ليحل مكانه شوق الطفلة التي كانت هي في يوم من الأيام، ودهشة تلك الطفلة نفسها المثيرة للشفقة، عندما تكتشف أنه في بعض الأحيان تصبح الأوهام حقيقة.

البيت. رسمت على شفيتها تلك الكلمة الغريبة عنها بصمت، فيما لهاثها قد صيّر الزجاج أمامها ضبابياً وجعلت ترمق القرميد الأحمر والمظلات ذات اللون الأخضر الباهت، لذلك البيت الذي كان أشبه بكعكة الزنجبيل. لقد كان ذلك تجسيداً لحلم ظنت أنها نسيته، وهو حلم من سنين بعيدة جداً، وقبل أن تعلمها الحياة كيف تحلم.

كان الصمت، في ما خلا قرقعة محرك السيارة وهو يبرد،

مطبقاً داخل السيارة بينما راح الياس يتفحص وجهها وهي تحملق من خلال النافذة إلى البيت، وقد بدت صورتها الجانبية أكثر ارتياحاً وانفتاحاً، كأنها تظهر للبيت جانباً من ذاتها لم تكن تسمح لعامة البشر برؤيته. وانتفض حاجبا الياس بفضول.

«لقد ترعرت في هذا المكان.» قالَ بهدوء

همست: «عظيم.» وأدهشتها نبرة صوتها بما كانت تحمله في طياتها من عاطفة جياشة.

قال، فيما كان يحدق إلى كتلة متشابكة من الشجيرات المحتشدة أمام شرفة المنزل: «لقد كان كذلك في ما مضى.» ثم تنهد وهو يرفع مسكة الباب: «هيا بنا نقوم بجولة في المكان.»

راحت مادلين تفكر بأن دخولها هذا المكان بالذات وهي البالغة، كان أشبه بدنوها من شباك التذاكر حين تكون آخر البطاقات قد بيعت. لقد تدبرت أمرك جيداً؛ لكن بعد فوات الأوان. لو كان عندها بيت كهذا يأويها وهي طفلة لكانت حياتها مختلفة عما هي عليه الآن، ولما كان العالم مدرسة باردة لا ترحم ودروسها قاسية مستعصية. إلا أن كل نحلات شهر أيار نفقت في حزيران كما كانت إحدى أمهاتها بالرضاعة تردد على مسمعها.

فيما كانت تمشي خلفه في أرجاء البيت كانت أفكارها تردد بحزن أن الأوان قد فات. وارتسم على وجهها خيال ابتسامة مهذبة ولكن باردة. وكانت يدها تمتد، بين الفينة والفينة، وعن غير قصد منها لتلمس الجدار، لتطال قبضة الباب البورسلين المصنوعة من قبل مولدها بمئات السنين.

وخلال هذه الهنيهات من ملامستها الجسدية تلك راحت تفكر كم كان كل شيء رائعاً فيما مضى، وكم كان حزيناً ما يبدو عليه اليوم.

كانت معظم غرف الطابق الأرضي من المنزل صغيرة ودافئة ومزدحمة بأثاث قديم، عتيق الطراز. وأعمال تطريز، صنع أمه تملأ المكان وأحست فجأة بعامل الغيرة الشديدة، من طفولته ومن الدفء والحب اللذين يحوز عليهما كل طفل ينمو في بيت كهذا، وحتى ولو كان فاقداً لأبيه. شعرت بلمسة الأم في كل غرفة وكأنها لا تزال حية ترزق تقوم على الترحيب بها واستقبالها...

أزاحت عنها فجأة وبحركة متوترة تلك الفكرة الخيالية التي كانت تراودها، وهي مغتاظة كونها تدغدغ فكرة صبيانية كهذه. وتوقفت عن التفكير وهي تحاول اللحاق به في الرواق الذي كان يقسم البيت إلى قسمين ابتداء من المدخل الأمامي مروراً بالسلالم وصعوداً إلى الطابق الثاني وانتهاءً بباب متمايل مصمم على الطراز القديم.

«المطبخ.» أعلن الياس بشكل غير ضروري وتنحى قليلاً ليدعها تدخل إلا أنها جمدت في مكانها بعد أن تقدمت خطوات قليلة في داخله. سألها وهو واقف خلفها: «هل من خطب ما؟»

هل من خطب؟ ترددت كلماته في ذهنها. كلا بالطبع لا. إلا إذا كان في نيتك أن تبكي من دون سبب وجيه وأن تدفني رأسك بين يديك وتنتحبي حتى يأتي أحد ممن يحبونك فيضع يده على كتفك ويهدىء من روعك. وقد يكون هناك شخص من هذا القبيل في مطبخ كهذا، شخص

يتأكد من أن الفتيات الصغيرات لا يبكين بمفردهن.

كان على يسارها بهو تحتشد فيه الخزانات القديمة من خشب السنديان، فيما كان الموقد المصفح بالحديد يحتل إحدى الزوايا قبالتها وبدا باب الفرن الضخم كفم مقفلاً على نكريات الخبز والكعك والحلوى التي كانت تملأ جوفه فيما مضى. كانت هناك طاولة خشبية مستديرة تجمع حولها كراسي متناسقة الألوان، طويلة كالسلالم، حشدت كلها داخل مختلى مظلل. وقد حضنتها نافذة ناتئة. كل زاوية من زوايا البيت كانت تحمل ذكريات من تلك المرأة التي جعلت من هذا المكان بيتاً، كتلك الآنية الفخارية الموضوعة على حافة النافذة والتي كانت تحوي فيما مضى نباتات نكية الرائحة عطرة، وكتلك المطرزات التي كانت تتدلى من الجدران والتي كانت إحداها تقرأ: «الطبخ هو الحب.»

«مادلين.» كان صوته ينم عن القلق وهو يردد: «هل من خطب؟»

أدارت رأسها ببطء لتنظر إليه وقد أعادت قناعها إلى وجهها فيما كانت إماراتها باردة. «لا، بالطبع لا.»

عندما استدارت، لمحت طبقة من الغبار تغطي كل شيء، الرائحة العفنة توحي بأن البيت خاوٍ. أدركت أن لا أحد أقام في أرجائه منذ زمن طويل وإذا كان المطبخ يوحي بشبه حياة فقد كان ذلك مجرد وهم.

«لم يسكن أحد هذا المنزل لسنوات.» قال الياس، كأنه يقرأ أفكارها. مر قربها ليقف عند المجلى وعيناه مركزتان على نقطة بعيدة خارج زجاج نافذة المطبخ الذي بهت لونه.

www.Rewity.com

«كنت أخالك تعيش هنا.»

هز رأسه فجأة مما جعل شعره يسترسل إلى الوراء. «لا، ليس هنا. سأريك أين.»

لحقت به إلى الخارج عبر باب خلفي واستقبلهما ممر من الحجر القرميدي قاد خطواتهما في رحلة لولبية عبر الفناء الخلفي حيث شاهدت بقايا مئات الورود التي ذبلت منذ زمن بعيد.

«هل ماتت؟» سألت وهي تشعر بالأسى عليها وهي تشرئب من خلال كومة الأوراق والأعشاب اليابسة.

«لا أدري.» قال بفظاظة وهو يحث الخطى: «بعضها مات، والبعض الآخر لا.»

انعطف الممر بزاوية حادة إلى اليمين ماراً بأرض خالية من الأشجار باستثناء مجموعة من أشجار الصنوبر الأبيض ثم انعطف ثانية خلف العشب البري الذي يغطي المروج المترامية الأطراف. وعلى بعد لا يتجاوز العشرين ياردة بانت بناية بيضاء الشكل أكبر مساحة من البيت وكأنها تشرئب من الأرض.

«هذا هو مسكني.» قال وهو يخرج مفتاحاً من جيبه ليفتح به الباب الأمامي: «لقد بنيته منذ سنوات عدة.»

شعرت مادلين بمتانة السجاد تحت قدميها فيما راحت تخطو بضع خطوات في المدى الرحب للمكان وهي تدور متمهلة. كان البناء خالياً من الجدران الداخلية ومن الأثاث والنوافذ. لا شيء من شأنه أن يملي الفكر أو يشده الصوت.

شاهدت بيانو ضخماً موضوعاً على منصة عالية في وسط البهو المفتوح. لاحقت نظراتها البيانو بشيء من

الإحترام. ثم تحول نظرها إلى الأنبوب الفخاري الرمادي الذي كان يتسلق الجدران والعوارض الخشبية الصاعدة إلى قمة السقف التي كانت تؤلف غرفة للصوت المرتفع من أدنى.

ارتعشت أناملها وقد انتابتها رغبة جامحة في أن تسرع إلى البيانو وتبدأ بالعزف، لتأليف الموسيقى في مكان معد لذلك العمل فقط. كان الياس واقفاً وراءها يراقب يديها وهما موضوعتان على جانبيها وابتسم ابتسامة باردة.

«الاستديو.» همست مادلين، وقد شعرت بأن نبرة صوتها قد تبخرت فجأة.

«وبيتي أيضاً.» قادها إلى الجدار البعيد حيث أزاح عنه قطعة من العارضة السميكة التي كانت تغطي الباب. دخلت مادلين إلى غرفة طويلة ضيقة تمتد على طول المبنى. كان يوجد فيها مكتب عليه شمعدان وسرير وخزانه وبعض الأشياء الأخرى.

هز رأسه وهو يشير إلى باب في الجهة الأخرى قائلاً: «يوجد مطبخ صغير هناك.» هز رأسه وهو يشير إلى باب في الجهة الأخرى: «وحمام، طبعاً. كل ما أحتاج إليه.» أما ابتسامته فلم تكن ممتعة وهو يتكلفها.

خرجت من الغرفة الصغيرة وقد ضاقت ذرعاً فجأة بجوها المزعج. «ألا تستعمل البيت أبداً؟»

أغلق الياس الباب وعلت شفتيه ابتسامة صفراء: «كلا. سيكون البيت بيتك، ما دمت تعملين معي.» مشى إلى حيث كان البيانو، دون أن يلاحظ كيف تسمّرت مادلين في مكانها وقد فغرت فاها.

راحت تفكر وهي ترتجف، البيت سيكون بيتها. ليس

www.Rewity.com

إلى الأبد، ولكن لفترة من الوقت، البيت سيكون بيتها.

«مادلين؟»

رفّت بعينيها وراحت تنظر إليه، متكئاً على البيانو وعيناه مركزتان على عينيها عبر المسافة التي كانت تفصل بينهما. «تعالي واعزفي لي.» قال بهدوء، ومن دون تحذير. شعرت مادلين بقلبها يخفق بسرعة.

أخذت تنظر إليه عبر الغرفة وقد بدا أكثر طولاً، أكثر عرضاً، أشبه بالعملاق، وكأن ارتفاع المنصة أو شيئاً ما عبر المسافة التي كانت تفصل بينهما قد جعله يبدو كذلك، وشعرت فجأة بالخوف. اقترب منها وقد أيقظ من طفولتها ردات فعل عاطفية، قديمة، أرعبتها حقاً.

مشت نحو المنصة وقد فارقتها الأحاسيس، وعندما جلست في مقعدها إلى البيانو، كانت يداها ترتعشان.

سرعان ما توقفت الرجفة عندما لمست أناملها لوحة المفاتيح.

بعد ربع ساعة من الوقت، أرخت يديها عن لوحة المفاتيح وأغمضت عينيها وقد شعرت بتلاشي قواها.

«شكراً.» همس من وراءها واستدارت ببطء على مقعدها وهي تنظر إلى عينيه الخضراوين الصافيتين كصفحة ماء ساكنة في إحدى برك الغابات. وارتسم على شفتيه طيف ابتسامة.

«لقد عزفت هذه المقطوعة كما تصورتها في عقلي عندما كتبتها.» قال بهدوء. وأدركت مادلين أنها عزفت مقدمة المقطوعة بطريقة فريدة من نوعها. قال النقاد إنه أخرق وتعوزه الرشاقة، وينجز أعماله بغير تفكير. وبسبب ذلك

أخذت شعبيته بالانحدار. لم تتذكر أنها قررت أن تعزفها قبل أن تفعل. إلا أن النوتة انسابت من أناملها إلى لوحة المفاتيح، وكأن تلك القطعة هي التي قُدّر لها أن تعزفها في هذه المناسبة الخاصة.

«أي شيء تريدين، يا مادلين.» كان يقول بحماس فيما هو يقترب منها: «سأعطيكِ أي شيء تريدين، مقابل أن يسمع العالم موسيقاي بالطريقة التي تعزفينها.»

راحت تنظر أمامها وأفكارها تتسارع. فقد أمضت حياتها وهي تريد أشياء من الناس إلا أنها لم يكن لديها ما تقدمه في المقابل. أخيراً، جاء من يطلب منها أن تعطيه ما هو ثمين عندها. وللمرة الأولى أتيح لها أن تختبر هذا الاندهاش المرعب في أن تكون مشاركة في السباق البشري بدلاً من أن تكون مجرد مشاهدة.

دعني أعيش في هذا البيت الرائع، دعني أعزف موسيقاك، دعني أكون على مقربة منك وأنت منكب على عملك، دعني أحوز على كل هذا إلى الأبد، كانت تفكر، إلا أنها كانت تعلم أن لا تسأل عما هو دائم. فلا شيء في عرفها يدوم.

«أنت وأنا لن نربح أية جائزة ونحن نتناقش هكذا.» قالت وهي تتظاهر بالدهشة: «سأعمل أي شيء لأعزف موسيقاك وستقدر جهودي حق قدرها.»

ضحك ضحكة خفيفة وأزاح يديه عن كتفيها ثم أدارها لتواجهه وقد جلس على عقبيه قرب المقعد وهو يحدق في عينيها: «نحن ثنائي ناجح، أنت تعلمين... ثنائي لا يهمهما شيء إلا الموسيقى، ومن أجل الموسيقى سنضحي بأي شيء. سنكون فريقاً ولا أنجح.»

www.Rewity.com

شعرت بوهن ضحكتها. «نعم. ينبغي علينا أن نكون كذلك.» راح صوت في ذهنها يؤنبها، إن ذلك لن يدوم، لأنك تريدينه كثيراً، وعندما نرغب بتحقيق أشياء أو نحتاج إليها، أو نتعلم أن نحبها، فهي سرعان ما تزول.

أحست بتوتر حين راحت يداه تنزلقان من يديها إلى معصميها. احتضن يديها وهو يحدق فيهما بتعبير من الرهبة. فشعرت أنها لم تعد تملكهما، كأنهما صارتا كياناً مستقلاً عنها يقوم هو على عبادتهما. انحنى على يديها، ولثم باطنهما وكأنه في عبادة، وكادت أن تغيب عن وعيها.

حملقت في رأسه وهو منكس. وبدأت موجة من الدفء تتحلل في داخل معدتها لتشيع الدفء في رجليها وصدرها ووجهها في وهج ظاهر. وشعرت إذ ذاك بتسارع بسرعة تنفسها.

راحت تفكر في انخطاف كلي. هذه هي الموسيقى والشعر ومعنى الحياة، وأنت تشعرين بها لأول مرة. تمالكي نفسكِ. وهي ربما لن تنتهي أبداً.

وقف فجأة ودفعها برفق لتقف إلى جانبه وشعرت مادلين لأول مرة بطول الرجل الذي بجانبها.

«انظري إليّ، يا مادلين.»

رفعت عينيها صاغرة، وأمسكت عن التنفس عندما رأت أن عينيه قد أصبحتا قاتمتين، وتحت تأثير تلاعب الضوء تبدوان سوداوين لا اخضرار فيهما وتضجان بالحيوية والدفء.

«الياس.» نادته لأول مرة وشعرت بأن اسمه صار مألوفاً على شفتيها.

تصلبت إماراته فجأة وهو يحملق بها مصدوماً، وكأنه أحس بأنه ارتكب ذنباً. «أنا آسف، لا أدري ما الذي دفعني لأن أفعل هكذا. ربما دافيد على صواب. فقد كنت وحيداً لمدة طويلة.»

كانت كلماته أشبه بأصابع باردة سوداء تضيق الخناق حول قلبها. فهل هذا كل شيء؟ لا شعر، لا موسيقى، لا اتصال عميقاً كتبه القدر؟ مجرد انفعال بسيط لرجل قضى كل هذا الوقت بمفرده؟

راح يحدق إليها لبرهة. نظرته ثابتة، وتعبيره مبهم. «لقد تأخر الوقت.» قال أخيراً وهو يستدير نحو الباب: «علينا أن نعود إلى المدينة.»

جلست مادلين قربه وهي ذاهلة. عرض عليها أجراً لائقاً مع الوعد بحقوق الفنان في المستقبل. هزت رأسها من دون أن تنبس ببنت شفة. فلا شيء كان يهمها، ولا شيء سيؤثر على رحلتها إلى روزوود.

www.Rewity.com

الفصل الرابع

شغلت مادلين في الأيام الثلاثة التي تلت، كل لحظة من وقتها بالأعمال المنزلية فوضبت ملابسها القليلة وأعادت إدراج مواعيد جديدة لتلامذتها مع أساتذة بيانو آخرين ونظفت شقتها استعداداً لغياب طويل، أي نشاط لتبقي عقلها منشغلاً عن ذكرى تلك اللحظات في الاستوديو التي دفنتها بأمان. إلا أن ومضات من تلك الذكرى كانت تتصاعد إليها فجأة، لتقطعها عن العمل، فتتوقف مكرهة وتصر على اسنانها وهي تحاول جاهدة أن تنسى ذلك الإحساس الجامح وهي في عناق مع الياس.

مراراً وتكراراً، خاصة اثناء الليل عندما كانت تتمدد متعبة على سريرها وقد جفاها النوم، تعود فتستعيد تلك اللحظات الثمينة في ذهنها. فقد لمسها الياس، محطماً بذلك دفاعاتها، جعلها تحلم بأشياء كانت على علم بأنها لن تصبح ملكها. وفجأة تراجع القهقرى غير آبه للاحساس الذي هز عالمها. فقد كان هذا الأمر بالنسبة إليه مجرد زلة بسيطة، ردة فعل بسيطة لا قيمة لها. وقد كرهته من أجل ذلك، إذ إنها كانت لم تزل تحت تأثير لمسته، في حين كان همه الشاغل هو الذي يلزمها لحزم حقائبها.

كان يتصل بها من عند دافيد في كل يوم، مع كل مخابرة كان صوته يزداد غضباً. استشاط غضباً هذا الصباح

وصرخ عبر أسلاك الهاتف: «ما الذي يحتاج إلى كل هذا التأخير؟»

«إنها حياتي!» أجابت بحدة، وهي تشد بقوة على السماعة. وأضافت: «لا بد من بعض الوقت لنغلق الباب على حياتنا، أنت تعلم ذلك!» ثم اقفلت السماعة في حركة تحدٍ ليست من شيمها. بعد ساعات، لم تصدق بانها أقدمت عليها.

جلست متعبة على الأريكة في صالونها ذي اللون الداكن ويداها حول فنجان من القهوة، كان فارغاً منذ وقت طويل، تحاول أن تستجمع قواها لتقف وتجر نفسها إلى السرير. قفزت على عقبيها لدى سماعها رنين الهاتف على المنضدة قريباً.

«مادلين.»

رفت عيناها عندما سمعت صوته ثم أجابت بهدوء: «نعم.»

«إني أتصل كي أعتذر، يا مادلين. فقد كنت عديم الصبر هذا الصباح. إني آسف.» بعد هنيهة من السكوت المطبق أضاف: «مادلين؟ ألا تزالين على الخط؟»

غمغمت أخيراً ببضع كلمات: «إنني آسفة بشأن ما حدث هذا الصباح. ما كان يجب أن أقفل الخط.»

«لا تكوني سخيفة. فقد راح دافيد ينعتني بأبخس النعوت إزاء عدم صبري هذا. وهو على حق.»

إرتسمت ابتسامة كئيبة في إحدى زوايا ثغرها وقالت بهدوء: «أشكر دافيد عني.» فهي لم تجلس معه أكثر من خمس دقائق وها هو قد أصبح وكيلها المدافع عنها.

«قد تشكرينه بنفسك. فأنا متأكد من أنه سيأتي إلى

روزوود لزيارتنا من وقت إلى آخر، إلا إذا... لم تغيري رأيك بالنسبة للعمل معي؟»

لقد أربكها سؤاله، إذ إنه لم يخطر على بالها قط أن تغير رأيها، إلا أن نبرة صوته العالية هذه جعلتها تدرك أنه كان يتوجب عليها أن تأخذ بعين الاعتبار خياراً كهذا، لأنها كانت تضع نفسها على مشارف خيبة أمل جديدة. سوف تقع مجدداً في غرام مكان آخر، يجب عليها إخلائه في وقت قصير.

أصلحت من جلستها وشدّت على السماعة وقد أصبحت إماراتها أكثر قساوة. قر رأيها أن لا تأخذ الأمور هذا المنحى في الوقت الحاضر. إنّ كل ما عليها عمله هو أن تبقى غير معنية وبعيدة، عن كل شيء، وقد صارت عندها سنوات خبرة في هذا المجال. وقد أبلت البلاء الحسن في ذلك.

هتفت أخيراً: «لا، لم أغير رأيي.»

«كم يلزمك من الوقت حتى تحزمي حقائبك؟»

رمقت الحقائب المتراكمة قرب الباب وقائمة الأشياء التي عليها أن تقوم بها، وغطاء البيانو الذي بات يشبه كفن مشؤوم. «لقد انتهيت.» قالت وقد أخذ التعب منها مأخذاً، وهي تتوقع أن تبقى ليلة أخرى في سريرها، متسائلة إذا كان سيجفوها النوم في تلك الليلة أيضاً.

أجاب: «سأكون عندك في خلال ثلث ساعة.»

أقفل الخط قبل أن تتمكن من تسجيل اعتراضها بأن الساعة قد دقت العاشرة، وأن لا لزوم للقيادة ساعتين في الظلام، حين يمكنهما الانتظار حتى الصباح...

أعادت الاتصال به مجدداً، فلم يجب أحد وفي أقل من ساعة كانا في السيارة متجهين شمالاً.

نامت مادلين طوال الطريق إلى روزوود، واستفاقت بشكل حسن لتتعثر على سلالم البيت الضيقة، ذاك البيت الذي يشبه في هندسته كعكة الزنجبيل. كان الياس ممسكاً بها تحت مرفقها بيد باردة متجردة لا إحساس فيها.

لم تلمح اللمعان اللطيف للخشب المصقول حديثاً وهو يعكس نور القمر المتسرب من خلال نافذة غرفة النوم ولم تعر انتباهاً لرائحة الشراشف العطرة، المجففة في الشمس والهواء. ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها وهي تدفن رأسها في ثنايا وسادة الريش، ونامت تلك الليلة وهي تحلم بالورود.

الأصوات التالية التي سمعتها كانت غريبة ومرعبة، نعيب أجش، خفيض أو أنين متنبذب ومتواصل في وتيرته. فاجفلت وفتحت عينيها على مداهما وراحت تحدق في الأشعة المتشابكة في ظلالها الغريبة على السقف، عندما عادت تلك الأصوات أغمضت عينيها وراحت تضحك من نفسها بصمت. فقد كان باستطاعتها أن تنام وسط عويل صفارات الانذار أو أصوات الأبواق في ضوضائها التي تصمّ الآذان، ولكن كان يصعب عليها سماع صياح الديك أو خوار بقرة بعيدة.

تنبهت إلى أنها في الجبل الآن وراحت تتساءل إذا كانت قد نامت نوماً هانئاً، كهذا من قبل. فلا ضوضاء الشارع تتناهى إلى مسامعها ولا تضج في اذنها مشاحنات الجيران عبر جدران شقتها الرقيقة، ولا القناني الزجاجية الموجودة

www.liilas.com

فوق المنضدة تجلجل بصوتها لدى سماعها لخفقات الموسيقى الصادحة من مكان ما... طرحت الدثار جانباً، وارتعشت عندما صفعها الهواء البارد. ولا غرو، فهي مستلقية من دون قميص نوم. فاستقامت في جلستها وراحت تفرك يديها بنشاط. وتذكرت كيف هزت برأسها عندما سألها الياس إذا كانت تريد حقيبتها وكيف أن شعوراً انتابها بأن تتعرى وتندس في فراشها. لكنها سرعان ما أزاحت عنها طيف هذه الذكرى وتحولت لتناول ثيابها عن الكرسي بجانب سريرها ثم تجمدت.

كان الياس واقفاً على عتبة الباب ولم يكمل خطواته. وقد غاب عن باله بانه ممسك بصينية الفطور التي راحت تهتز بين يديه. وجعلت عيناه تطوفان عليها ثم جمدتا على وجهها في دهشة صامتة.

لبرهة من الزمن، كانا جزءاً من لوحة صامتة، شخصين مندهشين يحملقان بأعين بعضهما بعضاً، خائفين من النظر بعيداً. تحركت مادلين اولاً ورفعت الغطاء إلى أعلى. رمقها بنظرة فيما كانت يدها متشبثة بالدثار، ثم انتقل إلى عينيها وقال وهو يمشي بهدوء واضعاً الصينية على الطاولة بقرب السرير: «إني آسف.»

جلست مادلين على سريرها وقد أخذت منها الدهشة مأخذاً وأحست بوجهها الدافىء وكأنه أتون من النار في معمعان تأججه وهي تراقب كل حركة كان يقوم بها. قالت من غير تفكير ومن دون أن تتمعن بما تقول: «لقد قلت لي بأنك ستسكن في الاستديو، وان البيت سيكون لي...»

رفع أحد كتفيه بلا مبالاة وكأنه غير آبه لعريها وقال:

«هذا الفطور هو للترحيب بكِ في اليوم الأول.» نفض منديل المائدة الموضوع على الصينية، فهفت رائحة القهوة والبيض لتملأ الغرفة. «أستميحك عذراً إذا كنت قد أربكتكِ. تمتعي بفطوركِ. سأراكِ في الطابق السفلي.»

بقيت لمدة طويلة ساكنة على فراشها بعد انصرافه وهي ذاهلة وقد تخدرت أعصابها من تصرفاته. فهي بالطبع لم تتوقع أن يتأثر أي شخص لدى مشاهدتها عارية، لكن لم تتوقع أيضاً هذه اللامبالاة الشديدة من أول رجل يجدها في هذا الوضع.

فقد كان ذلك أكثر من مخز بالنسبة لها، وكأنها قد تحولت إلى نكرة في هذا الوجود فهو لم يرها على الإطلاق. ذلك كان دليلاً كافياً على أن اقترابه منها وملامستها لم يكونا بدافع قصدي.

لم يكن من طبيعتها أن تغضب، فقد كان الغضب هو الملاذ الوحيد حين يدرك المرء عدم انتاجية باقي الأحاسيس، والحقيقة أن الدخول في سورات غضب الآن ليس مناسباً. إنه ضرب من الجنون أن تستشيط غضباً بمجرد أن رجلاً لم تهتز مشاعره عندما دنا منها وهي على ما كانت عليه. ومع أن الطريقة التي عبّر فيها عن تصرفاته كانت غير مريحة. فكرت مادلين أن نظرة فاسقة منه أفضل من لامبالاته الباردة تلك، إلا أنه سرعان ما اعترتها حمرة الخجل وهي تفكر بمثل هذا التفكير.

طرحت الدثار جانباً وقامت من سريرها وهي غاضبة من نفسها ومنه، وعكفت على حقائبها التي وصلت بطريقة ما إلى غرفتها في الطابق الأعلى. وقبل أن تعي ماذا كانت

تفعل، كانت كل قطعة من ثيابها مرمية في أرض الغرفة في فوضى ظاهرة. ارتاعت من تصرفها هذا وهو الشاهد الحسي لأحاسيس لم تكن تدرك أنها أحاسيسها هي. وارتدت بنطال جينز وقميصاً مبقعاً ببقع شتى كانت تنوي استعماله كخرقة لتمسيح الغبار. فلتكن ملعونة إذا كانت من الآن وصاعداً ستعتني بلباسها من أجل رجل، ما يكاد يدرك وجودها.

قال لها وهو يخفي ابتسامة متهكمة فيما كانت تدخل المطبخ: «أنتِ متلونة بألف لون اليوم، أليس كذلك؟»

أجابت بسخرية: «لا أدري لماذا لم آبه لشكلي الخارجي. ولكن يبدو أن ذلك لا لزوم له إذا كنت ستدخل متطفلاً إلى غرفتي في كل مرة.» رمت بالصينية جانباً وهي تشاهد البيضات المسلوقة تقفز من الصحن. لم تكن قد تذوقتها.

قال وقد عيل صبره: «قلت لكِ إني آسف، إذا كنت قد أربكتكِ. وما الخطب إذ رأيتك هكذا؟ فأنا لن آخذ صورك لأبيعها في الشارع.»

أدارت ظهرها له في حركة متعمدة لتسكب لنفسها فنجاناً من القهوة، في الواقع كانت تريد أن تخفي الإرتباك في قسمات وجهها. فهي لم تغضب لدخوله عليها متطفلاً ولكنها غضبت لأنه لم يعرها شأناً، فأية امرأة هي إذاً؟

أعاد ترداد اسمها بنبرة خفيضة: «مادلين، لم أقصد أذيتك، فالحقيقة أني استعجلت باستقدامك من المدينة، ولم يكن معي حق في ذلك. وما اتياني بالفطور إلا على سبيل المصالحة ومد جسر السلام معك، وليس ذلك تطفلاً على عزلتكِ أو تدخلاً في حياتك الخاصة.»

تنهدت مادلين طويلاً. فقد كان يحاول الاعتذار، ومن الأفضل على المدى الطويل أن لا يعرف أنه يعتذر عما لم يرتكب.

تناولت فنجان القهوة وجلست قبالته. كان مرتدياً بنطال جينز وكمّا قميصه مرفوعتين لتظهر عضلات ساعديه. تساءلت مندهشة، كيف يمكن أن ينمي ساعديه بهذا الشكل وهو يجلس إلى البيانو طوال النهار، وقالت: «لا يهم، لقد تجاوزت حدودي. لننسى ذلك.»

أشرق وجهه بابتسامة سريعة لم تدرك مغزاها.

قالت متطلعة إلى النافذة حتى لا تلتقي نظراته: «لم أكن أعلم أنك تطبخ.»

«أفعل ذلك مكرهاً، كان باستطاعتنا أن نتناول الفطور في الخارج، ولكنني لم أكن أرغب في إضاعة وقتي هذا الصباح. أود أن أذهب إلى الاستديو لنبدأ العمل.»

أخذ فنجانها يقعقع في صحنه وقالت: «اليوم؟ لكنني لم أفرغ حقائبي بعد، ولم أرتب غرفتي، وإذا كنت سأسكن في هذا المكان فإنه يحتاج للتنظيف.» مسحت بأحد أناملها الغبار عن الطاولة ورفعته ليتحقق بنفسه.

أومأ برأسه قائلاً: «إن بيكي ستهتم بذلك.»

«بيكي؟»

أومأ برأسه مرة أخرى وقد أنارت ابتسامة دافئة وجهه: «ستحبين بيكي، فهي تعيش في القرية، ولكنها ستأتي كل يوم لتطبخ وتنظف وتقوم بكل ما يحتاجه البيت...» ورفع أحد حاجبيه الداكنين في مواجهة تعبيرها المرتبك وأضاف: «بالطبع لم تأت إلى هنا كي ترعي شؤون

المنزل؟ فليس لديك الوقت لهذا. لدينا الكثير لإنجازه في وقت قصير.»

راقبته وهو يتكلم بسرعة، لاحظت حركاته السريعة وهو يشرب القهوة، ولاحظت كيف يقوم بكل شيء بسرعة، وكأن الحياة نزهة قصيرة، لا وقت فيها للراحة وتذوق ملذاتها.

«علينا أن ننجز مقدمة المقطوعة في خلال شهر لتسليمها إلى المنتج وإذا أعجبته وحازت على رضاه فعند ذلك يبدأ العمل الحقيقي. يلزمنا كذلك شهر، إلى أبعد تقدير، كي ننهي الاسطوانة ونسجلها. وقد يطلب منا، بعد ذلك تأليف بعض الموسيقى الدعائية لتسويق الفيلم وليس هذا إلا أول حبة في العنقود... هل تعتقدين أن باستطاعتك القيام بذلك؟»

هزت رأسها بسرعة وقالت وقد روعتها الفكرة: «أنا لست بمحترفة. فأنا مدرّسة بيانو، لقد قلت لك ذلك. لم أحترف وليس لي هوى في ذلك. ولم يكن باستطاعتي القيام بإعلانات دعائية أو...»

«لقد خُلقتِ من أجل الإحتراف.» كان يحدق في عينيها، وقد أحست بهذا التقارب معه، مثلما شعرت به لدى عزفها لموسيقاه.

فجأة، قطب جبينه، أشاح عينيه بعيداً عنها وكأنه أدرك أنهما تكشفان الكثير. وقال بفظاظة: «إشربي قهوتك ثم نبدأ بعزف الموسيقى.»

الفصل الخامس

توقفت مادلين أمام باب المطبخ وقد أذهلها التبدل الحاصل في الفناء الداخلي في خلال ثلاثة أيام. فقد أطل الربيع فجأة على القرية، كتلك الممثلة التي دخلت إلى المسرح على حين غرة وقد تذكرت موقعها على الخشبة.

عادت شجيرات الليلك الخفيفة لترتدي حللها بعد عري كاد أن يكون كاملاً وقد اصطفت في طول الفناء كالسابلة المحتشدة على جانبي الطريق في انتظار استعراض ما. أما الحور القطني، المرتفع كالأبراج خلفها فقد راح يناطح السماء الصافية الأديم بأوراقه الخضراء، في حين راحت أشجار التفاح تنشر من براعمها الأريج العطر وتطلقه في الفضاء. وحتى الورود في مقبرتها، بدت أقل تصلباً وأكثر تلوناً، وكأن أغنية الحياة قد عادت لترتعش فيها بألوان باهتة، ما تكاد العين تدركها.

استغرقت مادلين في تفكيرها، وهي تتأمل مفتونة مشهد مئات الزهور وقد عادت الحياة تخفق فيها بفضل يديها اللتين قامتا على تشذيبها وقلب التربة تحتها. فكم صرفت من السنين وهي ترعى زهوراً بيتية في شقتها الصغيرة وهي تحلم بحديقة، كتلك المنبسطة أمامها؟ ولم تستطع إلا أن تجثو على ركبتيها وتهيل التراب الندي على يديها العاريتين.

«هل تأتين؟» توقف الياس على بعد بضع خطوات منها

في الممر أمامها ورمقها بنظرة جانبية. فرفعت عينيها عن تلك الحديقة الحافلة بالجمال ونظرت إليه وقد اصطبغت قسمات وجهها بمسحة زائلة من هذا الجمال المتمثل أمامها.

ومضت الشمس على شعره ومضات ضاربة إلى الزرقة وخرقت قميصه الأبيض لتظهر ما خفي من جسمه. ومن دون سابقة انذار أحست وكأنها تمتلك الرجل والحديقة معاً.

تعثرت أفكارها وهي تحاول أن تكون أكثر واقعية. وبقيت عيناها محدقتين به على وسعهما، وافترّت شفتاها قليلاً وكأنها قد بدأت تحس نفسها في خضم تلك الرؤية التي انتابتها عندما شاهدت روزوود. ذلك الوعد الغامض بشيء رائع الذي يجافي المنطق ويلزمها برجل ومكان، سوف تضطر أن تغادرهما في ما بعد.

قال بهدوء فيما افترّت شفتاه قليلاً: «أنتِ جميلة بوقفتكِ هذه.» ثم خيمت الظلال على قسمات وجهه فأصبحت قاتمة دكناء. استدار ببطء... باشمئزاز، فكرت مادلين... وبدأ يتابع سيره.

سارت وراءه، في الممر، مارة بخميلات الزهور، وعبرا الحقل وصولاً إلى مبنى الاستديو. كانت تحس طول الطريق بنشوة عارمة. لم تدرك بسهولة أنهما وصلا إلى منتهاهما، لأنها كانت مأخوذة بالطريقة التي كانت فيها عضلات كتفه تتحرك تحت قميصه، فيما كانت خصلات شعره السوداء ترتفع لتحيي النسيم في خطراته. وأحست بدفء الشمس تحت قميصها بينما راح الهواء يهدهدها بغلاف معطر من

الحياة الجديدة. بدا العالم كأنه يبتسم ليومها الأول من حياتها الجديدة، وإذا كان بالإمكان التخمين من أشياء سهلة كالمناخ والمحيط فإن المستقبل لا يحمل في طياته سوى الأمنيات والآمال.

لدى دخولهما الاستديو بدأ كل شيء بالتحول.

لم يكد الباب يغلق خلفهما قليلاً حتى شعرت مادلين باختلاف حاد، وكأن البناء كله قد أثّر تأثيراً قوياً على الياس كما يؤثر الربيع الطلق على الطبيعة. نظرت في وجهه، لقد تبدلت ملامحه وأيقنت من دون أن تفهم كيف ايقنت، أن ذاك الرجل الذي التقاها في الحديقة الذي وصفها بالجميلة قد تحول لدى اجتيازه عتبة باب الاستديو إلى رجل آخر لا يشبهه في قساوته وانكبابه الدائم على عمله.

نظر إليها فجأة وبفظاظة ظاهرة وقد امتزجت خضرة عينيه بنور قاتم جعلها ترتعش. نظر إلى البيانو عبر المسافة التي كانت تفصله عنه فيما شعرت مادلين وكأنها مخدرة عندما تمتم: «إني أكاد أن أسمع الموسيقى.» فيما لا تزال حدقتاه مسمرتين إلى البيانو، وفجأة نفض رأسه إلى الوراء وراح يحملق فيها.

عبست لنظراته الغريبة تلك، وشحب وجهها عندما أدركت عدائيته وفكرت، يا إلهي، ماذا فعلت لأستحق كل ذلك؟

قال بخشونة: «تابعي، إنكِ تضيعين الوقت.»

رفّت عيناها بارتباك، وكأن العالم كله قد زال من أمامها.

صرخ، فيما كانت لا تزال واقفة في مكانها: «ألم تسمعي؟ لا تقفي هكذا مشدوهة. لدينا عمل نقوم به. إجلسي

إلى البيانو وابدئي بالتمارين.» استدار على عقبيه ومشى متشامخاً عبر الغرفة باتجاه مسكنه.

تتبعته بنظراتها، وهي مندهشة من تصرفه هذا إلى حد أنها تساءلت ما إذا كان حقيقة قد تكلم معها بهذه اللهجة الفظة أم أنها تتخيل ذلك. وراحت تفرك يديها على طول ذراعيها وقد أحست بقشعريرة باردة. ثم تحولت نحو البيانو.

تعرفت أناملها للحال على المفاتيح وراحت تمزق الهدوء القائم بنوتاتها المهدئة، المألوفة والمتصاعدة من جوف الآلة بتآلف وتناغم كليين. أخذت تعزف وتعزف، وبايقاع أسرع وأسرع إلى أن خبا صدى صوته في ضميرها.

أغمضت عينيها وأطبقت شفتيها وراحت تعزف بانخطاف كلي. حتى صرخت عضلاتها طلباً للراحة. حررت أناملها وأخذت تقوم بحركات سريعة صعوداً وهبوطاً حتى بدأ الدم يتدفق في يديها.

«حسناً. هذا يكفي.»

جمدت يداها فوق لوحة المفاتيح وأحست بحضوره وهو واقف وراء كتفها اليمنى واستغربت دخوله عليها من دون أن تنتبه لذلك.

«اعزفي هذا.» قال وهو يناولها نوتة جديدة.

أجفلت لدى سماعها لنبرته الآمرة تلك واغبرّت عيناها الرماديتان وصارتا أشبه بغيمتين تتلبد بهما السماء وبدت يداها ساكنتين فوق لوحة المفاتيح.

«تنفسي.»

وثبت في حركة مفاجئة لا إرادية عندمت شعرت بيديه تدلكان جانبي عنقها:

«قلت لك، تنفسي.»

في لحظة مجنونة قررت أن لا تفعل ذلك في تحدٍ ظاهر لإرادته. إلا انها سرعان ما تنهدت وقد بدت حانقة لأن جسمها قد خان إرادتها بسرعة. امتلأت رئتاها فيما راحت أنامله تغرق في عضلاتها المتصلبة وهو يدلكها.

حاولت أن تزيح يديه عنها قائلة: «لا تفعل ذلك.» إلا أنهما لا تلبثان أن تعيدا الكرة.

قال لها بصوت أجش، ونبرة مغناطيسية شبيهة بيديه: «اسكتي. لا تتحركي. اهدئي.» تلاشت العدائية من نبرة صوته. ولربما كانت مجرد أضغاث من حلم مزعج.

شعرت بالضغط يزول عنها، وبأن كتفيها قد بدأتا ترتخيان وراحت يديها تنحدران رويداً رويداً إلى لوحة المفاتيح ضاغطة عليها من دون أن تحدث أي صوت.

قال لها وقد أرخى يديه حول عنقها. «هذا أفضل. اعزفي الآن.»

بدأت بالعزف وهي تنظر إلى الورقة الماثلة أمامها على البيانو.

عندما وصلت إلى نهاية الورقة بانت وراءها أخرى ثم أخرى فأخرى. أما هي فكانت تعزف وحاجباها معقودان وعليهما طيف من الخيال الحزين وانشقت شفتاها بتنهيدة صامتة. ثم صارت هي الموسيقى. وتحولت تلك النغمات الحزينة والمثيرة للمشاعر إلى أغنية يترنح بها قلبها.

شعرت بلمسة لطيفة على ذقنها تدير رأسها إلى اليمين.

www.Rewity.com

ولم تلبث أن تعرفت إلى تلك اليد على أنها يده. فقد قام الياس إبان عزفها وجلس قربها على المقعد فيما راحت أنامله تحوط ذقنها وهو يحدق إليها وعيناه تتكلمان بصمت.

«هل هذه أغنية الفيلم؟»

أومأ برأسه قائلاً: «إنه عنوان الأغنية. لقد بدأت بكتابته في الليلة التي تعرفنا فيها على بعضنا بعضاً.»

أطبقت شفتاها وهي تعبة، كي تطرد ذاك الشعور الذي كان يجتاحها، حاملاً معه الدفء وكأنه يعانقها. فقد كان من الأشياء الحميمة أن تعزف موسيقاه وأن تحس بها وتعبر معها إلى حدود اليأس الذي كان سبباً في تلك النوتات المحبّرة على القرطاس. كأنها تستطيع أن تلج إلى عقله فتقول للعالم اجمع ما رأته هناك. فالاتحاد مع شيء كهذا كان غامراً... ومرعباً.

تملك الياس الشعور نفسه، أيضاً... مزيج من الفرح والرعب معاً. وقد راحت تتبينه في عينيه، وتشعر به في ارتعاشة أنامله الدافئة وهي تنزلق من ذقنها إلى عنقها وإلى النبض الخافق في تجاويف حنجرتها.

لم تكن قد أدركت بعد أن أنامله كانت تنزلق حتى تلمس النتوء في صدرها، وسمعت صوتاً يصرخ محذراً... تراجعي، يا مادلين، تراجعي الآن، طالما هناك وقت... غير أنها كانت ضائعة في خضرة عينيه التي وعدت بالربيع والولادة والأمل، وراح صدرها يخفق تحت يده كما تخفق الأرض حين تشيع عروسة النهار الدفء في أرجائها.

بدا كل شيء طبيعياً ولا محيد عنه. فقد انتمت إلى الياس

شيبرد منذ اليوم الأول الذي عزفت فيه موسيقاه، وهو أيضاً، بدوره، صار جزءاً منها وانصهر في بوتقتها.

بحركة لا شعورية رفعت يدها قليلاً لتغطي يده ولتضغط عليها أكثر وخالت للحظة أنه يبتسم لها من خلف عينيه الهادئتين وثغره المطبق، ولكن فجأة، تحوّل داكناً في سيمائه وبدا كأنه يتوعد بشر مستطير. وانتشل يده بسرعة عنها وابتعد عن البيانو وراح يحملق بها.

قبل أن تستوعب ما كان يجري أمامها تحوّل إلى أوراق الموسيقى الأولى ثم رفعها بين أنامله وقال: «اعزفيها مرة ثانية.»

نظرت عابسة إلى أوراق الموسيقى أمامها وقد راحت تغيب عن مرمى نظرها.

«اعزفي.» قال بلهجة آمرة فيما ارتعش حاجباها قليلاً وكأنها أدركت الكلمة ولم تفقه بعد الجواب المناسب.

«هيا، اعزفي.» صرخ بصوت عالٍ، تحركت يداها بخجل على لوحة المفاتيح وهي تتذكر المطلوب حتى لو لم يقم عقلها بذلك. وصدحت النغمة الأولى بنشاز ظاهر.

صرخ في وجهها: «إجعليها باء مسطحة!» عضت على لسانها وقد أدهشها صراخه وقالت: «هذه باء مسطحة، بحق السماء!»

كان يصرخ في وجهها، السافل. وفور استعادتها لصفائها ولصوتها ستقول له إنها لن تقبل منه هذا التصرف.

قال بغضب: «هيا، هيا! لقد عزفت اللحن على أحسن وجه في المرة الأولى؛ ماذا جرى لك؟ وكأنك تلميذة في السنة الأولى. ركزي!»

راحت تركز أكثر. إذ كان التركيز على الموسيقى أفضل من التركيز على عدائيته التي لا سبب وراءها، وأفضل من تذكر ما حصل بينهما أو كاد أن يحصل، أم أن كل ذلك كان من نسج خيالها. أخذت يداها تضغطان أكثر على المفاتيح، وبسرعة أكثر، وهي تشظي الهواء بنغماتها الخشنة الناشزة. غير أنها وبغرابة ظاهرة لم تبال لذلك. في الحقيقة، كان يرضيها أن تعزف بنشاز ظاهر، حتى تقوده إلى...

ضربت أخيراً بعنف على لوحة المفاتيح ووثبت فجأة على قدميها وتحولت لتواجهه وقد احمر وجهها ولمعت عيناها. للمرة الأولى في حياتها أحست مادلين بحوافز حقيقية للتحدي، فأرادت أن تصرخ في وجهه وأن تقرع صدره بقبضتها وتصرخ قائلة إنها لم تفقه شيئاً وإنها لم تعد تعي وعيده ووعوده التي تثير رغباتها من غير اعتزام لاشباعها، كما الحياة التي قدمت لها بيتاً وعائلة ثم اختطفتهما منها لاحقاً...

لحسن الحظ أنها لم تكن تجيد لعبة التحدي. فهي لم تُلَقَّن قط في أن لها الحق في أن تصرخ وتضرب بقبضتيها وتنتفض ثائرة لدى معاملة الآخرين لها باجحاف؛ هكذا، فهي عندما تكلمت بدا صوتها خفيفاً غائماً وقالت ببساطة: «لا أعتقد أن باستطاعتنا العمل سوية. من الأفضل أن تفتش عن شخص غيري.»

راحت تنظر في عينيه الزمرديتين اللتين اتسعت حدقتاهما ثم اشاحت عنه وغادرت الاستديو، ولم تكد تصل إلى غرفتها حتى ترنحت أمام الباب وهي تمنع ركبتيها من الارتخاء.

يا إلهي، لقد كانت غلطة رهيبة؛ في القدوم إلى هنا، وفي الأمل بأن انتماءها إلى موسيقى إنسان ما، قد يجعلها تنصهر فيه أيضاً.

راحت تفكر وهي تبتعد عن الباب بأنها قد تكون أقوى مما تتصور. فهي قادرة على الأقل على مغادرة المكان بمفردها، وقبل أن يطلب أحد منها ذلك. وفيما راحت تعود أدراجها إلى البيت، أخذ عقلها يتشبث بتلك القطعة الصغيرة من الكبرياء وهي تتدلى وراءها كبقية غيمة هزيلة غائرة في السماء.

www.Rewity.com

الفصل السادس

بحثت مادلين داخل خزانات المطبخ عما تحضر به إبريقاً آخر من القهوة، ثم جلست إلى طاولة وراحت تحملق إلى حديقة الورد، وهي تشعر بزوال خفقة الحياة فيها كتلك العيدان اليابسة السوداء التي كانت تشرئب باعناقها من الأرض.

تصلبت وهي جالسة على الكرسي، حين رأته قادماً باتجاه المنزل، وقد نكس رأسه وكأنه مستغرق في أفكاره. كرهت ضعفها في مواجهة رجولته وكيف كان سرواله منسكباً في قالب على رجليه فيما هو يمشي، ومنكباه العريضان وأشعة الشمس تلمع على الخصلات الفاتحة من شعره الأسود.

دخل من الباب بهدوء، ونظر إليها ثم انزلق على كرسي في مواجهتها وناداها: «مادي.» فقطبت جبينها وهي مرتابة من نبرته الناعمة ومن مناداتها بكنيتها هذه التي أطلقها عليها. فلم ينادها أحد بهذه الكنية قبلاً. وتابع قائلاً: «لا ألومك على ما فعلته، غير أنني لا أريد استخدام عازف آخر. فلا أستطيع استخدام عازف آخر ليس مثلك.»

شعرت بخفقة قلبها اللاشعورية والغادرة في صدرها، وكأن حمامة صغيرة كانت محبوسة هناك.

قال لها: «إني آسف لما حصل هناك. فلا أملك حجة

واحدة للطريقة التي عاملتك بها والله يعلم أنك تستحقين أكثر من ذلك...» توقف فجأة وهو يفرك يده على فمه.

«هل أنت تعتذر للطريقة التي لمستني فيها، أم للطريقة التي صرخت فيها بعد ذلك؟» كانت الكلمات تنساب من فمها قبل أن تفقه أنها ستتفوه بها وقد وثب قلبها إلى حنجرتها، فبدت كلماتها وقحة وجريئة.

جمد في مكانه لدى سؤالها، وعيناه شاخصتان اليها وقال بهدوء: «للإثنين معاً. ليس معي حق في أن أتصرف في أي من الطريقتين.»

آه، ولكنك فعلت، كانت تفكر. فقد أبحت لك أن تلمسني من خلال قلبي على الأقل...

بقي ساكناً لا يبدي ولا يعيد، وهو ما يزال يحملق اليها. قال وهو يبتسم بمرارة: «لقد تورطت مع عازفتي مرة قبل ذلك يا مادلين ثم تزوجتها، في الحقيقة.»

تساءلت لماذا لم يقل لها دافيد بأن زوجة الياس السابقة كانت هي أيضاً عازفته؟

تابع الياس حديثه في نبرة رتيبة مملة: «لقد أحب كلانا الموسيقى، وقد كنت أحمق بما فيه الكفاية وأنا أظن أن هذا يعني أننا كنا نحب بعضنا بعضاً. إن جعل هذين الأمرين يختلطان قد نتج عنه كارثة بالفعل، ولست مستعداً لأن أرتكب الخطأ عينه مرة جديدة.»

رأت مادلين إنعكاساً لذات الألم الذي كانت تراه من خلال مرآتها لسنوات، لذات الدفاع الهش الذي نصبته ضد أي إغراء بالسماح لأحد بالدخول. لا غرو في أن يصبح الياس

بارداً لدى دخولهما الاستديو للعمل. ويعيش تجربة الألم هذا من جديد.

فجأة، راح ينظر بعيداً عنها وكأنه لم يعد يتحمل رؤية وجهها لمدة طويلة باستمرار.

شرعت تذكره بنعومة: «أنا لست بزوجتك السابقة.»

نظر في عينيها، وارتخت أساريره لما رآه فيهما وقال: «لا، لست كذلك.» وبعد برهة راح ثغره يرتعش بشبه ابتسامة وقال: «أنت ساحرة يا مادلين، وأنت لا تدرين، أليس كذلك؟»

تذكرت ما قاله لها دافيد في اليوم الذي التقته فيه. فقد قال العبارة ذاتها، أم أن الياس قد ناداها بها أولاً؟ وأحست بوخزة خلف عينيها ورفّت أهدابها بصعوبة.

تابع الياس بنعومة: «لم أطلق زوجتي فقط، بل أظن أني طلقت العالم كله. وبقيت معزولاً لوقت طويل وأظن أني نسيت حينها كيف أهتم وكيف أشعر... ثم سمعتك تعزفين موسيقاي في ذلك اليوم، وسمعتك وأنت تعزفين قلبك عالياً على البيانو، و... كنت كأني سمعت أحاسيسي، وتذكرت أيضاً بأنها موجودة.»

كانت ابتسامته ناعمة حتى ليكاد القلب ينفطر لها. ومد يديه عبر الطاولة وأمسك بيديها وقال: «كأنني مستيقظ من نوم أو سبات طويل. لقد أعدتني إلى الحياة مجدداً، يا مادي. بكل بساطة.»

جلست مادلين ساكنة لا تبدي حراكاً، وهي ما تكاد تتنفس وقد راحت أناملها ترتعش على راحتيه.

«شيء ما يحدث عندما تعزفين الحاني، يا مادي. فهناك

رابط روحي قوي يجعل من الموسيقى تحيا من جديد أيضاً. إنه لشيء نادر، وثمين...» وتقوس حاجباه مثل جناحين أسودين يظللان عينيه وقال: «لن أسمح لهذا الأمر أن يهدم.»

رفّت عيناها بارتباك، فألقت أهدابها القاتمة بظلال فوق وجهها الشاحب.

«لا تدوم العلاقات إلى الأبد، يا مادلين.»

أومأت برأسها ببطء. فلا أحد يعلم هذا الأمر، أحسن منها.

«إلا أن موسيقانا ستدوم إلى الأبد. فتلك الموسيقى التي نحن بصدد خلقها، قد تدوم إلى الأبد إذا لم ندمرها باستسلامنا لأشياء قد لا تدوم مثلها.»

شعرت مادلين بأن الزمن يتوقف للحظة، وفي تلك الاستراحة السريعة انتقل شيء ما قاتم ليحتل المسافة القائمة بينهما. وأحست بأن أساريرها تتجهم، تتجمد في أي تعبير يصدف أن تغلف به وجهها.

«مادي.» شد على أناملها بأنامله وهو يناديها ثم اتكأ إلى الطاولة باتجاهها، وهو يسيطر على انتباهها وقال: «اعطيني فرصة أخرى.» كانت كلماته تنساب بنعومة حتى أنها ما كادت تسمعها.

نظرت إلى حيث كانت يداها مغلولتين كطائرين بلا حياة، ثم نظرت إليه مجدداً وقد ارتسمت حول فمها ابتسامة واهنة وحزينة وقالت بنبرة تعوزها الفخامة: «من أجل الموسيقى.»

«نعم، الموسيقى. فلا شيء أهم منها.»

كانت الساعة الصغيرة فوق المجلى تملأ السكون القائم

في المطبخ بدقاتها فيما أغمضت مادلين عينيها وأخذت نفساً عميقاً وقالت بلطف: «الموسيقى مهمة لي أيضاً.» وهز برأسه آملاً فيما انفصلت شعرة سوداء من رأسه عن رفيقاتها لتتدلى فوق جبينه.

«هل هذا يعني انك باقية؟»

نظرت مادلين إلى يديها، وهي تتنهد باستسلام وتتساءل ما إذا كانت تستطيع فعل ذلك... إذا كانت فعلاً، تستطيع قضاء أيامها وهي تراقبه، تستمع إلى موسيقاه، تشعر بوجوده، تقترب من عقله لتلامسه عبر مفاتيح البيانو تلك، إنها لا تهتم أكثر من اهتمامه هو. ألن يكون أسهل أن تغادر الآن؟ بالطبع، أجل. وسوف يكون ذلك مكاناً آخر يضاف إلى سلسلة أخرى من الأمكنة التي تركت فيها وراءها، فلذة من قلبها. وقالت بهدوء: «يجب أن تكون الأشياء مختلفة، لن تصرخ في وجهي. أريدك أن تعاملني مثل صديق...»

ارتخت كتفاه فيما أخرج تنهيدة طويلة. ونظر إليها لبرهة. ثم ببطء، وبحركة احتفالية مدّ يده عبر الطاولة وقال: «حسناً يا مادلين. أعدك بذلك.»

ترددت مادلين، ومع أنها علمت أنها كانت تعرّض نفسها لمزيد من العذاب، صافحت يده الممدودة، وهي تمهر بذلك الاتفاق الجديد الذي قام بينهما.

وقف ببطء، وقد بدا حزيناً على الرغم من أنه حصل على مبتغاه، وقال: «لماذا لا تأخذين بقية النهار لتوضّبي مكان اقامتك فيما أقوم ببعض العمل في الاستديو؟ يوجد بيانو في الردهة الأمامية إذا كنت ترغبين في العزف عليه.»

وأمسك بمقبض الباب ثم استدار ونظر إليها قائلاً: «لن تأسفي لذلك، يا مادلين، أعدك بهذا.»

راقبته بصمت وهو يغادر، ثم تحولت إلى النافذة لتتبعه بنظراتها فيما هو يعبر حديقة الورد ويختفي وراء الصنوبرات البيض، وهمست: «بلى، سوف أفعل.»

لم تدر كم مضى عليها وهي جالسة هناك، تحملق إلى خارج النافذة، حين سمعت صوت سيارة على الطريق الأمامية مما جعلها تقف على رجليها.

مشت عبر البيت إلى الباب الأمامي ففتحته ونظرت إلى قاطرة قديمة وقد تشقق زجاجها الأمامي على الجهة اليمنى.

خرجت من خلف مقود السيارة، امرأة نحيلة، صغيرة الحجم، وكأنها قد سكبت داخل بنطال. وكان شعرها الكستنائي ينسكب فوق كتفيها في تموجات لماعة كثيفة، وحين رأت مادلين عينيها الداكنتين، أضاءت وجهها المستدير ابتسامة.

«مرحباً!» لوحت بذراعها السمراء ثم انحنت لتسحب أكياس البقالة من داخل السيارة.

تقدمت مادلين نحوها للمساعدة وقد ظنت بأنها المرأة التي أخبرها الياس عنها وقد أدهشها جمالها الأخاذ غير الطبيعي وقالت: «مرحباً. أنا مادلين شمبرز.»

ناولتها المرأة كيساً من البقالة بابتسامة شاكرة وقالت: «لا يمكن أن تكوني أحداً آخر، لا كما وصفك الياس لي. ألم يخبرك عني؟»

«بلى، أنت بيكي، أليس كذلك؟»

«بالضبط، فأنا ربة المنزل، والمتسوقة للبيت والطاهية... وكل ما تحتاجان إليه.» هزت كتفها بمرح وقالت: «بالمناسبة، أين إيلي؟»

ردت مادلين مبتسمة وقد أعجبتها هذه الكنية: «إنه في الاستديو.»

أمسكت بيكي بالكيس الأخير وأغلقت باب السيارة ومشت متقدمة مادلين نحو البيت وقالت: «لن نفعل شيئاً لإزعاجه إذاً، يا إلهي انظري إلى هذا المكان!» وتوقفت في داخل الباب وهزت برأسها وهي تقول: «يبدو أسوأ في وضح النهار، حتى لنكاد نشتم رائحة الغبار.»

«في وضح النهار؟» راحت مادلين تمشي وراءها في الرواق مروراً بالسلالم حتى المطبخ.

ومضت بيكي بابتسامة مالوفة من وراء كتفها. «لقد نظفت غرفتك بعد حلول الظلام مما يعثر حبيبات الغبار العالقة هنا وهناك.»

«لم يكن يجب أن تفعلي هذا...»

«بلى، فعلت. لقد اتصل الياس وأتيت مسرعة. هكذا تجري الأمور. ضعي الكيس على الرف إذا سمحت. ألم يسنح لك الوقت لكي ترتبي أمورك هنا؟»

أجابت مادلين وهي لاهية عنها: «كلا، فأنا لم أفرغ حقائبي بعد.» وعضت على شفتيها بحيرة ودهشة وهي تتذكر الملابس المنتشرة في غرفتها. «في الحقيقة لقد بدأت بتفريغ حقائبي، نوعاً ما.»

«نوعاً ما؟»

هزت بكتفها وهي مرتبكة قليلاً. «لقد رميت بكل شيء

أحضرته معي في كل مكان من الغرفة. فقد كنت في سورة غضب.»

نظرت مادلين إليها فيما كانت تقوم بتفريغ محتويات الأكياس وهي تتعجب كيف أن امرأة بهذا الجمال لا تعمل عارضة أزياء بدلاً من مديرة منزل. وسألتها: «هل هناك الكثير من المنازل التي تهتمين بها؟»

ضحكت بيكي فيما هي تخرج مشطاً من جيبها وتعقص شعرها بدبوس إلى قمة رأسها: «هذه فعلة الياس، لا شك. هو يفعل ذلك. يخرج الناس عن طورها حتى ليرموا بأشيائهم في كل مكان هنا وهناك.» ونظرت إلى مادلين في محاولة الحصول على موافقتها وقد وجدتها، ثم هزت برأسها هزات صغيرة.

ضحكت بيكي وهي تمد يديها في كيس آخر: «لا أفعل ذلك لأكسب عيشي، بل فقط من أجل الياس. أنا معلمة مدرسة وهذه عطلتي الصيفية.»

تراجعت مادلين في أفكارها خطوة إلى الوراء، لكن بيكي استمرت بالثرثرة: «أنا سعيدة لأنه سوف يبقى هنا لبعض الوقت هذه المرة. فهو عادة يبقى لأيام قليلة ثم يغادر إلى مكان آخر... أي مكان آخر.» توقفت لبرهة ونظرت إلى مادلين ثم تابعت: «لقد حاولت لسنوات أن أكلمه بشأن السكن هنا بشكل دائم. ربما بمساعدتك أستطيع إقناعه.»

شحبت مادلين وتراجعت هذه المرة خطوة فعلية إلى الوراء، وبدأ كل شيء يظهر واضحاً أمامها. بيكي لا تنظف المنازل من أجل كسب العيش، هي تقوم بذلك من

أجل الياس فقط، بيكي تنظف غرفة النوم بعد حلول الظلام... ماذا قالت هي؟ «الياس يتصل، وأنا أحضر بسرعة؟»... وهي الآن تتوسل مساعدة مادلين لإقناعه بالبقاء معها بشكل دائم...

«هل من خطب؟» كانت بيكي مقطبة الجبين رداً على تعابير وجه مادلين.

«لا. لا شيء على الإطلاق.» أجبرت نفسها على الإبتسام وأضافت: «سوف ابتعد عن طريقك الآن.»

كانت الكلمات تعني أكثر من عزمها على مغادرة المطبخ، ولكن بيكي لم تدرك ذلك بأي شكل من الأشكال.

«سوف أعد الغداء في وقت قصير.» ثم تقدمت من الثلاجة وفتحت بابها، وابتعدت بسرعة وهي تجعد أنفها باشمئزاز: «أف، يوجد شيء ميت هناك.» نظرت إلى أعلى ووجهها مشرق ثم قالت: «من الآن فصاعداً سوف أكون هنا بشكل يومي، بالمناسبة، إذا احتجت لشيء ما دعيني أعلم بذلك.»

ابتسمت مادلين ببرود وهزت رأسها، ثم اعتذرت وغادرت المطبخ، وهي تتوق إلى إيجاد بيانو والعزف عليه.

لم يرها الياس الصالون في جولتها الأولى في البيت، بل اختار أن يفتح الأبواب الخشبية لجهة غرفة الجلوس عندما مرا بها. شقت الأبواب الآن بجهد كبير، ثم نظرت إلى ما بدت أنها أكبر غرفة في الطابق الأرضي.

كانت قطع قليلة من الأثاث المريح منتشرة في تلك الغرفة، وموقد نار من القرميد، وحائط مغطى بعشرات الصور المؤطرة التي قررت مادلين أن تتفحصها في وقت لاحق.

أما الآن، فقد كانت تتوق إلى رفع الغطاء الملقى فوق البيانو الصغير قرب النافذة.

أدهشها أن تجد أن البيانو الأسود القديم بحاجة إلى تلميع، وقد ظهرت عليه بعض الشقوق التي ابرزت الخشب العاري. وكانت المفاتيح العاجية صفراء. لم يكن من نوع الآلة الموسيقية التي يتوقع أن يحتفظ بها الياس شيبرد في بيته.

ولكن ذكّرت نفسها، أن هذا المنزل ليس بيته؛ لقد رفض حتى النوم هنا. بالإضافة إلى ذلك، فإن نظرة سريعة إلى الآلة تثبت أنها تلقى عناية حسنة على الأقل من الداخل. ويصدر عنها صوت رنان رائع.

جلست من دون أن تفكر ثانية وتركت البداية الحزينة لمقطوعة بيتهوفن سوناتا ضوء القمر تمحو العالم من وجدانها. وفي اللحظات الأول دفعت بكل أفكارها إلى زوايا عقلها، ثم تاهت في الموسيقى.

البيانو كان دائماً مهربها الوحيد، ملجأها من حقيقة قاسية لا تستطيع مواجهتها، حريتها من مشاعر حادة لا تستطيع كتمها في داخلها.

في كل مرة كانت يداها تلامسان لوحة المفاتيح كان البيانو يحاكيها وهو يحتفل بانتصاراتها وأفراحها، ويندب أتراحها، ويرثي يأسها. فقد كانت خجولة في طفولتها، وكان التعبير عن مشاعرها من خلال البيانو أهون من مقاسمتها مع أناس لم تعرفهم لمدة طويلة.

توقفت عن العزف، وتركت النغمات الحزينة متعلقة في الهواء كصدى لحالتها. بيكي واقفة في الرواق، ساكنة، لا

تبدي ولا تعيد فيما كانت تتدلى من يدها ممسحة من الريش. وقالت بهدوء: «لقد نسيت ما معنى الموسيقى في هذا البيت. فقد مضى على ذلك وقت طويل.»

مزق الصمت القائم صوت أشبه بدوي الرعد وهو يصرخ: «ربيكا!»

استدارت بيكي بسرعة وهي تقول: «ههنا!» وقد أشرق وجهها اشراقة مضيئة.

في ثوان قليلة كان الياس واقفاً في الرواق وهو يرفع بيكي بين ذراعيه بابتسامة لم ترها مادلين على وجهه قبلاً. وأمسك بوجهها بين يديه وراح يقبلها على وجنتيها. ثم وقفا وهما يبتسمان لبعضهما بعضاً وهو غافل عن مادلين وكأنها صارت قطعة من أثاث.

بلعت ريقها بصعوبة وقد ظنت أن ما قاله في تجنبه التورط العاطفي ينطبق فقط على العازفات وليس على القائمات على خدمة البيت أو أساتذة الموسيقى.

أدار الياس رأسه فجأة ووقع نظرة عليها فصاح: «لم أدرك أنك هنا. أعتقد أنكما قد تعرفتما على بعضكما بعضاً، لماذا لا نجلس ونأخذ القهوة؟»

حاولت مادلين أن تبتسم غير أنها أخفقت في ذلك ولم تلبث أن قالت: «في الحقيقة كنت على أهبة أن أصعد إلى فوق. إلا اني أردت أن أجرب البيانو أولاً.»

حاول الياس أن يتقدم نحوها قائلاً: «جربيه إذاً.» إلا انها انتصبت واقفة قبل أن يهم باتخاذ خطوته التالية.

«لقد فعلت ذلك. إنه لعظيم، إلا أنني تعبة الآن. أراكما فيما بعد.»

مشت بهدوء ولم يكد أسفل السلم يخفيها عنهما حتى أسرعت في خطاها. راح الياس يناديها فيما كانت قد أوصدت الباب خلفها ولم ترد على ندائه. وارتخت مفاصلها وهي متكئة إلى الباب وأمسكت عن التنفس علها تسمع صوته مجدداً وهو يناديها، إلا انه لم يفعل.

كانت المنضدة تواجهها عبر الغرفة ولم يكن أمام مادلين من مفر، إذ عليها أن تركز على صورتها المنعكسة في المرآة. الصورة التي رأتها بدت لا شكل لها تحت ذلك القميص المجعد. صغيرة، ومثيرة للشفقة بشكل غريب.

تنهدت بعمق وهي تبتعد عن الباب، عبرت الغرفة واقتربت من المرآة حتى لكاد نفسها أن يجعل زجاجها ضبابياً.

وهمست بحزن: «أنت غير مرئية. فهو يستطيع سماعك تعزفين، إلا انه لا يستطيع رؤيتك، لأنك غير مرئية.»

www.Rewity.com

الفصل السابع

كانت شمس الأصيل تغسل الغرفة بأشعتها الوردية عندما استيقظت مادلين، فجلست على سريرها وتفحصت ساعتها.

لقد نامت أربع ساعات ولم يحرك أحد ساكناً لإيقاظها. ولماذا يفعلان ذلك؟ فكرت بأسى فيما راح ذهنها يستعيد صورة الياس وبيكي وهما يتعانقان.

شعرت فجأة بالحنين إلى شقتها، إلى أثاثها، حيث كانت تجد راحتها وأمانها. لدى مشاهدتها روزوود للمرة الأولى اعتقدت أنها ستكون مكاناً مماثلاً. البيت، الموقع، وحتى حديقة الورد التي قتلها الشتاء بدت تناديها كأنها أصدقاء قدامى، ولكن كم بدا ذلك سخيفاً وهي تستعيد الأحداث الماضية وتتأمل أن لا مكان لها هنا.

استغرقت أطول وقت ممكن في أخذ حمامها ثم بتجفيفها لشعرها، وارتدائها لملابسها واعادة ترتيب غرفتها... في محاولة منها لتأجيل رحلتها المحتومة في النزول إلى الطابق الأرضي ولقائها المحتوم مع الياس وبيكي الذي سينكرها بأنها أصبحت دخيلة كما كانت في كل مكان دلفت إليه.

مثل طفل في دثار الأمان، وجدت بعض الراحة في قطعة من الثياب كانت تحبها حباً جماً، الفستان القطني الأبيض الذي أصبح رقيقاً لتعرضه للغسيل المتواصل ولكنه كان

يتدلى عليها بتموجات ناعمة من العنق حتى أخمص القدمين. وكانت عند ارتدائه، وبكميه الطويلين المتدلين عند المعصم، آية في التواضع الأنثوي. وسرعان ما تساءلت إذا كان ارتداء زي كهذا هو محاولة لا شعورية في مناقضة زي بيكي الهزيل والبعيد عن كل بهرجة.

بيكي. إن ذكرى أنوثة بيكي المفعمة بالحياة والنشاط كانت وكأنها تسخر من انعكاس صورتها في المرآة وهي بالأبيض من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، مع خصل الشعر العديمة اللون والمنسدلة حول كتفيها. وامتدت يدها لتناول الصباغات أو أي شيء. لاعطاء الحياة لشفافية وجهها الشاحب، غير أن سخافة تقليد جمال بيكي قد أدهشها، وتركت الصباغات من دون أن تلمسها. وفيما نفذت كل الحيل لابقائها بعيدة عنهما، غادرت غرفتها وبدأت بنزول السلالم.

كان الياس ينتظر وهو مستغرق في ظلال العصر في الطابق الأرضي من المنزل.

ارتبكت لدى رؤيته، وابطأت ثم توقفت وهي تنظر إليه فيما راح هو ينظر إلى أعلى، ويده ممسكة بالدرابزون، ووجهه جامد في تعبير غريب. كان شعره أسود لماعاً، وقد بدا أنه أخذ حماماً وصفف شعره وهو مردود إلى الوراء كيفما اتفق.

تسمّرت عيناه عليها، وهي صامتة تنظر في خضرة عينيه التي كانت تبدو عميقة وكأن كل خضرة الربيع كانت تنعكس فيها. ولاحظت أنه كان يلبس الأسود وقد ساهم ذلك في إعطاء وهج لعينيه ولاستجلاب نظرها إلى

ذينك اللونين، الأسود والأخضر وابقائه أسيراً هناك.

من دون أن تنبس ببنت شفة رفع يده قليلاً عن الدرابزون ومدها إليها ومن دون أن تعي ما هي بصدده، وأخذت بها.

شعرت بوخزة خفيفة في أصابعها وهي تنزلق إلى داخل راحته وخطت خطوة باتجاهه فيما لا تزال عيناها محدقتين في عينيه ثم راحت تخطو خطوة أخرى. وتوقفت على بعد درجة من درجات السلم وقد أصبح وجهها بمساواة وجهه، إذ لم يعد باستطاعتها أن تتقدم أكثر. وقال بهمسة خفيفة: «تعالي، يا مادي.» وأحاطت يداه بخصرها ورفعها نحوه من دون جهد. وتدلت رجلاها في الهواء وخالت قلبها يسبح فوق جسمها كما سبحت قدماها فوق الأرض. ثم أنزلها رويداً. فقد كان قريباً جداً منها، وعندما شعرت مادلين بضغط أنامله حول خصرها، أفلت يديه وتراجع بسرعة بعيداً عنها.

نظر إلى الأرض في الوقت نفسه، ثم أخذا يتطلعان ببعضهما بعضاً بتردد.

قال بهدوء: «لا بد أنك جائعة، فقد نمت حتى الظهر.»

أومأت مادلين برأسها بحركة قوية وعيناها واسعتان. مع بعض خدع الذاكرة، خيّل لها أن يديه لا تزالان تحوطان بخصرها.

«هيا بنا.» استدار وهو يمشي أمامها في الرواق باتجاه المطبخ ولحقت به وهي غافلة عما حولها وعيناها شاخصتان إلى حيث كانت قميصه متشبثة وغائرة بين عظم كتفيه.

قال وهو يستدير نصف استدارة: «لقد حضرت بيكي لنا

العشاء قبل أن تذهب. لم اعتقد أنك قد ترغبين في الخروج هذه الليلة.»

دلكت خصرها بحركة لا شعورية فيما هي تلحق به لتمحو ذكرى لمسته. «هل ذهبت بيكي؟»

«منذ ساعات.»

كانت ظلال العصر المديدة تملأ غرفة المطبخ، والهواء قد أذعن لكآبة الغسق. وكان المصباح فوق المجلى مضاءً إلا أن الظلام لم يكن قد احلولك بعد ليشع أكثر. توقفت مادلين في الرواق وارتجفت وشعرت بانزعاج غامض.

كانت لمسة بيكي في كل مكان من البيت. النافذة فوق المغسلة تلمع الآنية الفخارية الفارغة قد أزيلت عن شرفة النافذة إلى مكان آخر غير مرئي. وفي المختلى المظلل كانت مساحة لماعة من الأرض تمتد حتى الموقد المنظف حديثاً، في آخر الجدار، وكانت الكراسي التي تحيط به أكثر لمعاناً. وإلى الأمام قليلاً، امتدت الطاولة القائمة تحت النافذة المطلة على حديقة الورد، وهي معدّة لشخصين، فيما كانت صفحتها تلمع من بين الحصر الصفراء الممدودة عليها.

بقيت ساكنة في رواق الغرفة فيما كان الياس يحرك شيئاً يستوي على النار ذا نكهة خاصة.

قال لها: «كنت أحتسي الشراب. هلاّ صببت لكِ بعضاً منه؟»

نظرت إلى إبريق من البلور وإلى كؤوس متناسقة مع الابريق، كانت مصفوفة على الطاولة، بدت ثمينة وفي غير موقعها بين الآنيتين الفخاريتين الجبليتين

الموضوعتين هناك. ابتسمت وهي تسكب الشراب وتفكر بالاضداد التي التقتها في هذا الوقت القصير الذي أمضته في روزوود. أعمال التطريز المشغولة بكل تدقيق وإمعان تملأ هذا البيت الخالي من الحب؛ الياس الممزق بين حنوه ودفئه وانقلابه المفاجيء إلى البرودة؛ الحديقة الميتة وسط ربيع موفور؛ والآن تلك الآنية من البلور في مطبخ على الطراز الجبلي.

إنضم الياس إليها إلى الطاولة وقال بانحناءة بسيطة وهو يرفع كأسه: «في صحتك وطبقاً لما قالته بيكي، علينا أن ننهي هذه الزجاجة قبل أن نفكر بالأكل.»

رشفت مادلين من الشراب ذي اللون الأحمر القاني وغرقت في إحد الكراسي ذات الظهور المتمادية في الطول. وانزعجت لبقائه واقفاً وهو ينظر إليها من أعلى وقالت: «هل حقاً، أن كل ما تفعله سيء إلى هذه الدرجة؟»

قهقه قائلاً: «لا، فبيكي طاهية رائعة.»

راحت مادلين تحاكي نفسها وتساءلت إذا كان هناك شيء لا تستطيع بيكي أن تقوم به. إنها ربة بيت، طاهية، ربما عالمة ذرة في أوقات فراغها. «أعتقد أنك تحبين الشراب؟»

هزت مادلين كتفيها ورمقت كأسها وقد أدهشها وجوده فارغاً وقالت: «أعتقد أنه يحتم علي ذلك.»

هز الياس برأسه وهو يبتسم ثم تراجع باتجاه الموقد وهو يقول: «أعتقد أن بيكي قد حسبت حسابك. صبي لنفسك المزيد.»

وتساءلت مادلين إذا لم تكن ابتسامتها متكلفة من

الخارج كما كانت عليه من الداخل. وأوقفت يدها حين وصلت آلياً نحو الابريق.

كان العشاء مزعجاً بصمته. وصرفت مادلين عشاءها بالنظر إلى الظلمة وهي تزحف إلى حديقة الورد خارج النافذة محاولة أن تتجنب نظراته قدر المستطاع.

استهل فجأة حديثه قائلاً وقد جعلها تجفل: «كان من المفترض أن نتعرف إلى بعضنا بعضاً هذه الليلة.»

«ماذا؟»

وضع شوكته بتأن ورفق مبالغ فيهما في صحنه وأخذ ينظر إليهما لفترة طويلة وكأنه كان يتوقع أن تتحركا أو تهتزا بمفردهما ثم قال: «من أجل ذلك خلق الشراب. ظنت بيكي أنه سيكون جميلاً أن نسترخي وأن نمضي أمسية اجتماعية رائعة.»

تقوس أحد حاجبيها وقالت: «حقاً؟»

هز رأسه بكآبة وقال: «لن تكون هذه الأمسية ممتعة مثل الأمسيات الإجتماعية، أليس كذلك؟ لقد كانت بيكي على حق. كان علينا أن ننهي الزجاجة.»

كان الظلام شاملاً عندما انتهي من غسل الصحون وتجفيفها. فقد كان تنظيف الطاولة عملاً أخرق إلى حد ما وكأنهما أشبه بغريبين يحاولان وضع بعض الترتيب في المنزل.

سمعت مادلين الياس وهو يتنهد تنهيدة عميقة فيما كانت تضع منشفتها المبللة على المشجب قرب الموقد كي تجف. واستدارت لتراه وقد أدار ظهره لها فيما كان رأسه منكساً ويداه متكئتين فوق المغسلة.

www.liilas.com

لم يكن عدلاً أن يسلط النور عليه في تلك الطريقة، فكرت مادلين بأسى، لأنه كان يشع عليه فيلمع شعره مثل هامة فوق رأسه، يظهر قميصه الحريرية المتشبثة فوق عضلات جسمه التي كانت تهتز عند كل زفرة.

قال وهو يتحول نحوها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة هازئة: «نحن لسنا صديقين مثاليين، أليس كذلك؟ وإذا كانت هذه الليلة شاهداً على ذلك، فأنت تبدين مبتدئة في الحياة الإجتماعية مثلي.»

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت: «إني آسفة. فأنا لست مولعة بالحديث أو بارعة فيه.»

«لا تعتذري، فأنا مثلكِ.»

تنهدا في آن واحد، ثم فيما أخذت شفاههما تعكس ابتسامتهما المتوترة. استدار الياس محولاً وجهه عنها وهو يدّعي شدّ إحدى الحنفيات التي لم تكن بحاجة لشدّ. ثم قال: «لقد اتصل دافيد هذا العصر.»

قالت متعجبة وهي تنزع خيطاً وهمياً من أحد كمي قميصها: «أصحيح؟»

«لقد أراد أن يأتي ليأخذك إلى العشاء نهار الجمعة.»

إن فكرة مشاهدة دافيد، وأن يكون لديها رفيق، تماماً كما الياس لديه بيكي، اصبحت فجأة تروق لها. لن يكون هناك صمت مزعج في أمسية برفقته. الصمت هو ألد أعداء الأشخاص مثل دافيد، إنه شيء قاتم ومخيف يجب أن يبقى بعيداً بأي ثمن. «أعتقد أنني أرحب بذلك. أي وقت سيكون هنا؟»

استدار فجأة ليواجهها غير أن شيئاً غريباً ظهر في

سيمائه، وقال: «لن يأتي. لقد قلت له بأن لا يفعل.»

ارتبكت مادلين للحظة ثم قالت: «لماذا فعلت ذلك؟»

قال وقد بدأ وجهه يتجهم: «لأنني... لا أريد أي شيء أن يعيق عملنا.»

قالت غاضبة: «عليّ أن أبدأ بالأكل على أية حال.»

هز رأسه باستياء وقال بفظاظة ظاهرة: «إن دافيد من النوع الذي يلهي الواحد عن عمله. وأظن أن آخر ما تحتاجين إليه هو الهاؤك عن عملك.»

بقيت ساكنة برهة من الوقت وهي تحاول أن تصيغ كل ما كان يحصل أمامها من أمور لا تصدق، في كلمات. أخيراً أجبرت نفسها على القول: «أنت قررت؟»

ضاقت عيناه في محاولة دفاعية، رافضاً أن ينظر إليها وقال: «بالضبط. فأنا أعلم ما هو الأفضل في هذا الوضع.»

راحت مادلين تنظر إلى يديها وهما تتحولان إلى قبضتين بيضاوين قبل أن تدرك كم كانت غاضبة. فقد بدا كأحد الآباء المغرورين وهو يحاول أن يدق ناقوس الخطر ضد أحد أبنائه. وقالت بتأنٍ وهدوء: «ليس لديك حق في أن تتخذ قرارات مثل هذه.» لم تستطع من خلال صوتها الواثق أن تمنع نفسها عن التفكير بأن كان لديه الحق في وجود بيكي بشكل يومي بينما هي لا يحق لها أن تسهر ليلة واحدة بعيداً عن سيطرته.

عندما نظرت إليه أخيراً كانت عيناها قد اصبحتا قاتمتين بلون رمادي عاصف فيما اشرأب ذقنها ثائراً. وقالت بنبرات حادة ومتقطعة: «إني أعمل عندك، غير أنك لا تمتلكني، وإذا كنت أريد أن أذهب أو أخرج إلى العشاء مع

شخص آخر فهذا ما سأفعله بالضبط. سأتصل بدافيد غداً، وسأخرج معه مساء الجمعة.» دارت حول نفسها ومشت بتشامخ خارج المطبخ إلى الردهة. كادت أن تصل إلى السلالم حين أحست بيده تمسك بها.

لم يقل شيئاً البتة، بل أمسك ذراعها من خلف وأدارها حول نفسها بقوة حتى كادت أن تفقد توازنها. وعندما أصبحت في مواجهته كانت عيناها مأخونتين به خلف غطاء من الشعر الأشقر الذي غطى وجهها، ولم يبد أنه يعلم فعلاً ما عليه أن يفعل.

تغضن حاجباه بارتباك ظاهر وأنزل ذراعها بسرعة وقال بصوت أجش: «قد نستطيع أن نذهب سوية ليلة الجمعة. لا لزوم للاتصال بدافيد ليأتي كل هذه المسافة.»

«لقد كان دافيد يرغب في القدوم وأنا أحب أن أراه.»

نظر إلى عينيها وبحركة أدهشتها رفع يده ليزيح الشعر بعيداً عن وجهها كي يستطيع رؤيتها بوضوح أكثر.

أغمضت عينيها بحركة لا شعورية لدى ملامسته له ثم راحت تفتحهما رويداً رويداً. وقال بهدوء: «حسناً. فهمت. فالأمر يختلف الآن، أليس كذلك؟» تراجع خطوة إلى الوراء ورفع يديه وقال: «كنت ذاهبة إلى مكان ما، أليس كذلك؟»

فتحت مادلين فمها باندهاش، ثم ترددت وهي تحملق في عينيه السوداوين تحت ضوء الرواق الشاحب. وهز رأسه وكأنه يحاول أن يقرأ تعابيرها في الظلام ثم تحول بعيداً ومشى نحو المطبخ.

تبعته بنظراتها وهي تراه يلتفت إلى الوراء نصف استدارة قبل أن يغيب عن نظرها.

قال من دون تفخيم في نبرته: «سأعمل لوحدي غداً صباحاً. كوني في الاستوديو بعد الغداء.» ثم سمعت باب المطبخ وهو يفتح ثم يغلق برفق وراءه.

www.Rewity.com

الفصل الثامن

الربيع. كانت شفتاها تتمتمان بصمت تلك الكلمة وهي ترفع شباك نافذتها وتتنفس بعمق من نسيم الصباح الدافىء العطر. وقد أضحى ذلك عادة من عاداتها في أقل من أسبوع، فهي تفتح نافذتها وتأخذ نفساً عميقاً وهي تحاول أن تتعرف إلى تلك الروائح الذكية الجديدة التي كان العالم يقدمها مع كل فجر. هذا الصباح كانت رائحة الأرض الذكية الغنية تتصاعد إليها من الحديقة الكائنة تحتها، فتفرح وينشرح صدرها لمساهمتها في تعزيز هذا المهرجان الحسي القائم نصب عينيها.

في المدينة، كان الربيع ينساب أمامها وهي في غفلة عنه. أما هنا، في الجبل، فقد كان الربيع يعود للحياة وهو يغمر حواسها بفيض من كل عطر ولون.

وراحت تفكر. سيبقى هذا الربيع عالقاً في ذهني حتى آخر أيامي، على الرغم من كل شيء.

تحولت الحياة في روزوود إلى رتابة مملة من الساعات المتتابعة. وفيما كان الياس يعمل بمفرده في الاستديو، كانت مادلين تصرف صباحياتها في حديقة الورد، وهي غارقة في جمال الطبيعة الخفية. تلك ساعات صفائها الحقة، لا يعكر صفوها أي شيء.

أما فترات بعد الظهر، فكانت تقضيها مع الياس، في الاستديو، وهي عاكفة على عملها، في عزف البروفات

والاعادات، فيما كان هو يمرر يديه في خلال شعره، وهو عابس وغير راضٍ مطلقاً عما كان يقوم به. فقد كان واضحاً أنه يدور في حلقة من الاحباط في خلقه وإبداعه ولم يستطع أن يجد منفذاً إلى الخارج. ثم يذرع الغرفة جيئة وذهاباً فيما هو يشتم ويكسر الأقلام ويمزق الأوراق، حتى أنه في الأمس ضرب بقبضته على الحائط؛ ولكن، لم يكن يلومها لأجل هذا الاحباط. فقد كانت محادثتهما محدودة في إطار الموسيقى ولم تتعداها إلى شيء آخر، وكان كلما خاطبها بقي حريصاً على ابقاء نبرته ناعمة ولطيفة ومزاجه مكبوحاً، وطبعه هادئاً.

كأن مليون سنة قد مرت منذ أن تصافحا بالأيدي لأول مرة وتعاهدا على الصداقة، وفي استعادته للأحداث الماضية والتأمل فيها بدت هذه الصداقة مادية صرفاً. ففي كل الساعات التي امضياها سوية لم يتبادلا الحديث إلا في الموسيقى. كانت الرابط الوحيد بينهما. وحتى هذه، في الوقت الحاضر بدأت عراها بالتفكك بسبب إلهامه المتدفق. ولشد ما كان يزعجها ظنها بأن تكون هي الملامة في عزفها وأنه على وشك استبدالها بغيرها، وأن معاملات فطامها عن الموسيقى قد بدأت.

في الأيام الثلاثة التي تلت بقي الياس سجين الاستديو، رافضاً الذهاب إلى البيت لتناول وجبات طعامه، وأخذ يتحاشى رفقتها ما استطاع. أما هي فقد كانت تعيش يومها في مرمى مناداته، وقد سربلتها الوحدة بجلبابها.

كانت بيكي تحضر يومياً لتنظيف البيت وتحضير الطعام، وعلى الرغم من أن وجودها كان يخفف من هذا

الصمت المخيم على المنزل، إلا أن مادلين لم تكن تشعر بارتياح لوجودها. وكأن نظراتها المذهلة وعلاقتها الودية مع الياس لم تكن بكافية لارعابها، فقد كانت مادلين تشعر بأن تياراً خفياً من العدائية بات يسري تحتها من دون أن تدرك كنهه، لأنه لم يكن موجوداً قبل ذلك.

خلصت في استنتاجها إلى أن الياس قد يكون أفضى إليها بأن عازفته الجديدة كانت تضيق الخناق عليه بطريقة ما، وتثير عند بيكي غرائزها الدفاعية إلى أقصى درجة.

لم تكد تصل إلى آخر استنتاجها هذا، حتى بانت بيكي. فقد سمعت مادلين صوت سيارتها وهي تقف في الطريق الخاصة خارجاً، ثم فتح الباب الأمامي وأغلق وراءها.

كشرت تكشيرة لا شعورية لدى علمها بدخولها إلى المنزل، إلا انها سرعان ما شعرت بالذنب وهي تدغدغ هذه الفكرة. ليست الغلطة غلطة بيكي إذا كانت قد ولدت جميلة، ولا في أن يكون الياس قد راح يشعر ازاءها بمشاعر وأحاسيس لم يكن ليشعر بها تجاه مادلين. وتنهدت وهي تستعيد ذكرى أطباق الفطور المغطاة بمناديل السفرة والتي كانت بيكي تصعد بها إلى الاستديو كل يوم فيما كانت هي تتناول طعامها وحيدة في بيتها. ونادراً ما تعود بيكي أدراجها قبل مضي ساعة، ولم يكن ذلك يحتاج إلى كبير عناء في تصور كيف كان الأثنان يصرفان تلك اللحظات.

عندما نزلت مادلين إلى الطابق السفلي كانت بيكي منحنية على الأرض وهي عاكفة على فرك أرض المطبخ فيما كان شعرها مشدوداً إلى الوراء تحت شريط أزرق، ووجهها يلمع بقطرات العرق الناضحة منه. وكانت كالعادة ترتدي بنطال

الجينز المقصوص وقد صار زيها العملي في عرف مادلين. وإلى ذلك، فقد كانت مرتدية قميصاً خالياً من الكمين، بهت لونه الأحمر واقترن بلون من الزهر الضبابي. وقد بدت، كما العادة، مذهلة. وجلست على عقبيها وراحت تمسح أعلى ذراعها على حاجبيها فيما كانت مادلين تولج إلى الغرفة.

استهلت بيكي كلامها قائلة: «القهوة جاهزة، أظنك تستعدين لقضاء صباح آخر في الحديقة.»

أشارت مادلين بأناملها إلى شعرها المعقوف كذنب المهر في قمة رأسها وراحت تحدق في الجينز الباهت والرث وقميصها ذا المربعات، الفضفاض. وقالت: «لدينا الكثير من العمل لنقوم به.»

هزت بيكي رأسها وهي تقول: «لقد كانت والدة الياس تهوى هذه الحديقة، مثلك تماماً.» وترددت وهي تبتسم ابتسامة خفيفة وأضافت: «لربما هي الآن تنظر من عليائها إلى هذا المكان وهي تضحك ضحكة عريضة إذ قد جاء من يرعى ورداتها ويهتم بها.»

كان ذلك أول محصلة من الأخبار عن هذه المرأة التي جعلت من هذا المكان منزلاً مثالياً وهي تغذيه بحبها. وعضت على شفتها السفلى ثم قالت: «هل كنت تعرفينها جيداً؟»

هزت بيكي برأسها وقالت: «ليس بالشكل الذي كنت أحب فيه أن أتعرف إليها. فقد انتقلت إلى برايتون سكوير قبل سنة من موتها.»

«ولكنك أعجبت بها.»

«بل أحببتها، فقد كانت امرأة رائعة.»

قالت مادلين: «اعتقد أنها كانت كذلك.» ثم غرقت في

تفكيرها وهي تتذكر كل تلك اللحظات التي شعرت فيها بحضور تلك المرأة المحبب في البيت، في الخميلة. ثم أضافت: «لهذا السبب لم أكن أعلم لماذا كان الياس يكره هذا البيت.»

راحت بيكي تحدق في عينيها في نظرة ملؤها الوعيد ثم قالت: «لا تعلمين شيئاً عن الياس، أليس كذلك؟»

بدت وكأنها في مجال الاتهام، فيما هزت مادلين برأسها وهي تشعر فجأة بأنها مذنبة لجهلها.

قالت بيكي: «حسناً، فيجدر بالياس أن يصارحك بما يريد منك أن تطلعي عليه، وليس أنا.» ترددت ثم طقطقت بلسانها قليلاً وكأنها قد ندمت لكونها كانت مقتطبة على هذا النحو الفظ وأضافت قائلة: «لم أكن أقصد أن أصرخ في وجهك. واللّه عليم بذلك، وأعتقد أنك تعانين بما فيه الكفاية بالعمل مع إيلي.»

أخفضت مادلين من نظرتها وراحت تغمغم قائلة: «لم يعد يفعل ذلك كثيراً الآن. أو على الأقل، فهو يحاول أن لا يفعل. لقد توصلنا إلى اتفاق.»

أجابت بيكي ببساطة قائلة: «هكذا سمعت أو هكذا تناهى إلى مسمعي.» وأضافت وهي تنظر في دلو الماء الممزوج بالصابون: «لم أصدقه حين قال لي الياس إنكما تعاهدتما على أن تكونا صديقين.» قالت تلك الكلمة الأخيرة بسخرية ظاهرة وكأنها لا تصدق الأمر.

أفلتت الكلمات من فم مادلين قبل أن تدرك أنها ستتفوه بها: «لا أعجبك كثيراً، أليس كذلك؟» ورمقتها بيكي مندهشة.

قالت أخيراً: «لا أعرفك تماماً.» ثم اشتبك حاجباها فيما راحت تتفحص مادلين ثم أردفت: «تذكرينني قليلاً بأمه. فقد كانت وسيمة مثلك، وباردة مثلك تقريباً.» وأنشأت تحدق في ثوبها ثم قهقهت فجأة وقالت: «بالطبع، فلم يكن للموت أن يفاجئها أبداً وهي في لباس كهذا. أما نمطها فكان في القبعة البيضاء والقفازين وفستانها الشفاف.»

غمغمت مادلين: «لا يتوجب علي أن أرتدي الأبيض. فقد أكون تلاشيت.»

تنهدت بيكي: «ليس هذا ما يقوله الياس.» وانحنت لتستأنف عملها في فرك أرض المطبخ قبل أن تتفوه مادلين بأي حرف وتابعت: «النساء أمثالك يبدين جميلات في كل ما يرتدين. إني أشعر بالغيرة منهن حتى الموت، بصراحة.»

راحت مادلين تحملق، وهي مصعوقة، إلى شعر بيكي اللماع وهو يهتز مع حركات ذراعيها النشيطتين وهمست: «ولكنك بارعة الجمال، فأنت أجمل امرأة رأيتها في حياتي.»

جلست بيكي على عقبيها مجدداً ونظرت إليها بنظرة ملؤها الحيرة: «جميلة ربما، ولكن لست ببارعة الجمال. ليس مثلك.»

مالت برأسها إلى مادلين وهي تنظر بتجهم قائلة: «يا إلَهي، حتى أنك لا تعرفين هذا، أليس كذلك؟»

بلعت مادلين ريقها، وهي ترف أهدابها فيما راحت بيكي تقهقه عالياً. وفجأة، وكأنها تذكرت أنها لا تحب مادلين، انحنت على عملها وقالت بصوت أجش: «والآن، خذي فطورك واخرجي من هنا. فأنا سأغادر اليوم عند

الظهر، وأمامي الكثير من العمل لانجازه قبل ذلك!»

ترددت مادلين لبرهة ثم همست: «لقد نسيت شيئاً فوق.»

تحولت مهرولة في الرواق، وصعدت السلالم في أقصى سرعتها وكأن هذا الشيء كان على أهبة أن يختفي قبل أن تسنح لها الفرصة برؤيته. ودخلت غرفتها بسرعة وتوقفت عند المرآة، وهي تلهث وقد راحت عيناها تتسعان ملؤهما الدهشة والتساؤل فيما انشقت شفتاها قليلاً.

جميلة؟ تجهمت أساريرها قليلاً وهي تتفحص في انعكاس صورتها في المرآة. فقد اكتسبت بعضاً من اللون بسبب تواجدها المستديم في الخارج؛ ولكن، وفيما خلا ذلك، فقد كانت تبدو رقيقة ولطيفة كما كانت هي الحال دائماً، بعينيها الرماديتين بلونهما الفاتح، بشرتها الفاتحة أيضاً، على الرغم من تعرضها للشمس؛ شعرها الفاتح أيضاً وأيضاً معقوف الآن على شكل ذنب المهر... وكل شيء فيها كان أشبه بتلك الصورة التي تعرضت كثيراً للشمس فبهت لونها. إلا أن ذلك ليس بالجمال. فالجمال يستدعي الانتباه. وكل انسان يعلم ذلك. فالجمال يتجسد في أشخاص أمثال بيكي ممن يفضن حيوية ولوناً، حيث تتحول الوجوه اليهن مراقبة.

تنهدت وهي تشعر بانخداعها، وكأن بيكي قد أعطتها هدية ملفوفة بذوق، تبين فيما بعد أنها علبة فارغة.

عثر عليها الياس بعد ساعة في حديقة الورد وهي منحنية فوق كوكبة من الأغصان الهشة والجافة. وهي تزيل عنها ما علق فيها من أوراق وحشائش صمغية، وتمهد كومة التراب بعناية.

تناهى صوته من ورائها: «إنك تضيعين وقتك.» وغزلت على ركبتيها وأدارت رأسها بسرعة، مندهشة.

عندما رأى وجهها ابتسم في الحال، ثم بطريقة لا شعورية، مد يده ومسح بقعة من التراب كانت عالقة على طرف أنفها، ثم قال: «رائع.» وارتبكت فجأة لشكلها الخارجي. فقد كان سروالها رطباً وأسود اللون نزولاً من عند الركبتين وفيه أخاديد طويلة من التراب العالق على جانبي فخذها حيث مسحت بيديها. استطاعت بطرف عينها أن ترى خصلتين من شعرها قد تحررتا من عقدتهما وهما تسبحان طليقتين في النسيم العليل. ومدت يدها لتمررهما خلف أذنيها ثم توقفت فجأة وقد أدركت أن يديها كانتا ملطختين بالتراب. قام هو بذلك جالساً القرفصاء قريباً منها، وأخذ يراقب يديه وهما تلمان شعث تلك الخصلات المتشردة التائهة وتروضانهما.

أخذت مادلين تراقب وجهه وقد انشقت شفتاها قليلاً عن ابتسامة، وقد أثار دهشتها كم بدا مختلفاً تحت الشمس، بعيداً عن أضواء الاستديو الاصطناعية. كانت خضرة عينيه تتناغم مع براعم شجيرات الليلك في مؤخرة الحديقة خلفه وشعره يرتعش ويتماوج في زرقة خلفيتها سوداء. حتى أن ثغره بدا ألطف وأقل اكتئاباً.

مال برأسه باتجاه خميلة الورد وقال: «إنها ميتة، أنت تعلمين ذلك.»

تمتمت: «لا.» ومدت بيديها نحوه وأمسكت بأنامله وقادتها إلى حيث كانت علوج التطعيم في قاعدة الخميلة، تحت التراب. «تحسس ذلك؟ تلك الدرنة القاسية في ساق

النبتة؟ ثم هنا، بلطف الآن... ذلك النتوء البسيط؟ هذه هي البداية. إنها تعود إلى الحياة.» ابتسمت وهي تنظر إلى العيدان القاسية والجافة وقد سحرتها معجزة الربيع الناهض من غفوته. وقالت: «أليس ذلك أكثر الأشياء إثارة للدهشة؟ أن تشعر به تحت خفق نبضك؟»

عندما حدقت في وجهه ثانية، أربكها تعبيره. للحظة، فقط لحظة، كانت عيناه تعكسان أحاسيس قلبها، حنانه الظاهر في نظرته الناعمة... ولكن فجأة تجهمت أساريره وسحب يده منها بفظاظة.

شد على ركبتيه ووقف وكأن تلك اللحظة لم تحدث قط، راح ينظر حوله إلى العشرات من شتل الورد التي كانت مادلين قد عملت على تنظيفها من الأجسام الغريبة. وشذبت الأورمات القصيرة في أصل الشجرة وقال: «لم ألاحظ من قبل كم عملت هنا.»

«لا أدري كيف كان باستطاعتك أن تلاحظ؟ فأنت لم تغادر الاستديو منذ أيام.»

رمقها بنظرة فيما راحت هي تنظر إلى يديها المسبلتين على طول فخذيها وكأن شيئاً ما في عينيه قد جعلها تنظر إلى ذاك المكان.

قال بنبرة تعوزها الفخامة: «إني مغادر الاستديو اليوم. يمكنك التمرين فيه إذا أحببت أو تأخذين فرصة بعد ظهر هذا اليوم. لن أعود قبل المساء.»

ارتخت كتفاها ببطء فيما كانت تراقبه وهو يبتعد باتجاه البيت، إلى حيث بيكي. وكانا قد غادرا حين دخلت المنزل لتتناول طعامها.

وقفت في رواق المطبخ وهي مذهولة من حدة ما كانت تشعر به. فلم تكن الوحدة، أو الحسد، أو الغيرة، أو خليط لهذه المشاعر. فقد كان أعمق من ذلك وأقوى... أشبه ببذرة متنامية من الثورة، ليس فقط كونها منبوذة بل لكونها غير جديرة بالاعتبار أيضاً. فقد غادر مع بيكي من دون الاهتمام على تركها لوحدها، وكأنها أضحت مثل الآلات التي تطفأ عندما لا يحتاج إليها. بالنسبة له فهي ليست بانسان من لحم ودم، بل زوج من اليدين لا وظيفة لها خارج لوحة المفاتيح. فالمرة الوحيدة التي اعترف فيها بوجودها كانت عندما أدت أداءً أشبه بأداء الحيوان المدرب في الاستديو، ولكنها، هي أكثر من ذلك. فهي كائن بشري أيضاً، امرأة، مثل بيكي... وقد آن الأوان كي يلاحظ ذلك.

أمضت أطول وقت حتى فترة بعد الظهر وهي تستحم وتغسل شعرها وتعزز قوتها البدنية عبر تلك الحركات التقليدية التي لم تكن لتلجأ إليها قبلاً.

إنتهت عند الغسق وكانت سعيدة من جراء ذلك. وأعجبتها الطريقة التي كان فيها النور الوردي يجمل صورة وجهها، ولم يرق لها شيء في منظرها الخارجي وقد ادهشتها صورتها المنعكسة في المرآة.

عملت على رفع شعرها فوق قمة رأسها فيما كانت بعض الخصلات متدلية فوق حاجبها ومعقوفة فوق أذنيها. واسرفت في استعمال الصباغ وبدت عيناها خامدتين وراء رموشها الكثيفة وقد جعلها الكحل تبدو أكثر سواداً.

كان فستانها من دون كمين، باللون الأزرق الفاتح وكانت قد اشترته لحضور احدى حفلات تلامذتها

الموسيقية. تلك هي المرة الأولى التي ترتديه. في ذلك الوقت شعرت بالإرتباك لأنه يلتصق بزوايا جسدها، وسخرت من ياقته العالية، لكن الآن هي مسرورة لإرتدائه.

أما التنورة فكانت واسعة تلتف حول وركها عندما تتحرك، قد امتحنت تأثير ذلك أمام المرآة بعينين واسعتين وجلتين. فلم يكن باستطاعتها أن تحدد الخط الذي يميز بين ما هو مغرٍ وما هو سيّىء الذوق، غير أن شيئاً واحداً كان أكيداً وهو أنه لن يكون بمقدوره أن يتجاهلها وهي بلباسها هذا.

إذا حاول أن يختبىء في الاستديو مجدداً الليلة، فكرت، سأخرج وأنا أتهادى بحذائي ذي الكعب العالي والح عليه أن يأخذني إلى العشاء. فهذه الليلة لن اتناول طعام العشاء بمفردي.

ترنحت قليلاً وهي تتهادىء بحذائها ذي الكعب العالي عندما سمعت الباب الأمامي يغلق بعنف.

كان واقفاً في آخر السلم عندما نزلت وكأنه كان ينتظرها لتعلن عن دخولها. بادلته النظر بجرأة فيما هي تنزل درجات السلم وهي تشعر بحفيف الحرير على ساقيها. وابتسمت لدى سماعها صوت تنفسه بين أسنانه.

راحت عيناه تطوفان عليها قبل أن تصبح على مرمى يديه، ثم توقفتا عند عينيها في نظرة باردة وكأنها قوة ملموسة تنذر بدفعها إلى الوراء.

قال بقرف ظاهر: «كدت أنسى اليوم الذي نحن فيه.» ثم ومن دون أن ينبس ببنت شفة، استدار ومشى بعيداً في البهو عابراً المطبخ وخارجاً من الباب الخلفي وقد أغلقه بعنف وراءه.

وقفت مادلين على السلالم وقد شلت حركتها وهي مصعوقة من ردة فعله، وأفكارها تردد مراراً وتكراراً أن كون المرء غير مرئي ليس شيئاً سيئاً، لكن أن يشاهد، ثم ينبذ، فهذا أسوأ، أسوأ بكثير.

www.Rewity.com

الفصل التاسع

لم تدر مادلين كم مضى عليها من الوقت وهي واقفة على السلم وقد مات فيها كل حس وفكر بعد خروج الياس من الغرفة ببرودة ظاهرة. لكنها بدأت تدرك ذلك لدى سماعها نقرة خفيفة على الباب الأمامي، ولدى شعورها بوخزة في يدها القابضة على حاجز السلم. كأن تلك القبضة كانت كل ما يمسك بها عن الوقوع.

عادت إلى وعيها وقالت: «أدخل.» وسمعت صوت حفيف الثوب فيما هي تتحرك.

دخل دافيد من الباب، ونظر إليها، ثم همس قائلاً: «يا إلهي.» وراحت عيناه تطوفان حول شعرها وفستانها، وبلع بريقه كتلميذ تملكه الإضطراب وحملق بها بنظرات إعجاب جعلت مادلين تشعر بأن الروح التي سحقها الياس تعود للحياة ببطء.

همست قائلة: «شكراً، يا دافيد.» وهي تهبط بقية الدرجات. ووقفت على رأسي قدميها لتعانقه، ويداها تستريحان على كتفيه العريضتين وهي متعجبة من كونها قد صارت قادرة على الاتيان بهذه الحركة. كان الأمر سهلاً مع دافيد إذ أن ما يبدو منه، كان يشجع تلك الظاهرة العاطفية نحوه. وقالت مادلين وهي تقترب منه: «لن تدري أبداً كم أنا بحاجة لذلك.»

تلمست يداه خصرها وانحنت إلى الوراء وهي مأخوذة

بنظرته الساحرة. وكان تعبير وجهه غريباً عن ملامحه العادية، الواثقة. كما كان الصمت غريباً عن طبيعته، وشعرت مادلين بلمعان إطراء لا يحتاج إلى كثير كلام.

ابتسمت وهي تحدق في عينيه الكستنائيتين وخصلات شعره المتشابكة، الداكنة على رأسه وقالت له: «تبدو في غاية الجمال هذه الليلة.» ولاحظت أن قميصه الأزرق يتناسق في لونه مع فستانها وكان ذلك أشبه بالمصادفة الغريبة.

نفخ صدره وأطلق تنهيدة، وكأنه يستعيد قوته الخطابية. وقال: «لن أحاول حتى أن أقول كيف تبدين. فلم يخترعوا بعد الكلمة المناسبة.»

احمرت مادلين وأزاحت هذا الإطراء جانباً بهزة من كتفها.

سألها: «هلا نذهب؟»

ترددت مادلين وقد قطبت جبينها ثم سألته قائلة: «إلى أين؟»

«إلى العشاء، بالطبع. فلدينا حجز في الهيل توب إن... ألم يقل لك الياس بأني قادم؟»

عضت على شفتها السفلى بين أسنانها وتجهمت قائلة: «في الواقع ما قاله لي هو أنك لن تأتي...»

رد عليها قائلاً: «ولأنه قال بأني لن آتي، فقد أخذت بكلامه.»

حاولت مادلين أن تبتسم وقالت: «في الحقيقة لقد حاولت أن أتصل بك وأقول لك بأن تأتي بأي حال، ولكن كنا مشغولين كل هذا الوقت...» وهزت كتفها وهي تحاول

التهرب من سؤاله وتتساءل كيف غاب هذا الشيء عن ذهنها.
وأضافت: «أعتقد أنني نسيت.»
تردد قليلاً، ثم تكلم ببطء وعيناه تطوفان في حيرة ظاهرة فوق شعرها وفستانها: «تعنين أنك لم تتوقعي قدومي؟»
أمسكت عن التنفس للحظة وذهنها يفتش عن عذر يبرر مظهرها الخارجي، ولم تلبث أن أفرجت عنه بضحكة واهنة وقالت: «كنت على وشك بأن أذهب إلى العشاء بمفردي. فقد مللت ارتداء سراويل الجينز وقمصان الرياضة والبقاء محبوسة هنا...» وتوقفت قليلاً وتنهدت وهي تنظر إليه وأضافت بصراحة كلية لا غبار عليها: «ولكنك لا تعلم أبداً كم أنا سعيدة لكوني في صحبة أحد. خاصة صحبتك.»
رفع ذقنها باثنين من أنامله وراح يتفحصها بعينيه. وخفضت عينيها بدل أن ترد عليه، فيما أخذ يسألها عن الياس: «أين الياس؟ ينبغي أن أحيّه على الأقل قبل أن نغادر...»
ردت من غير تفكير: «ألا يمكن تأجيل ذلك؟ في الحقيقة، إني جائعة.» وأسرعت إلى خزانة المطبخ وتناولت شالها الخفيف وحقيبتها واستدارت نحوه وهي ممتلئة حبوراً. فقد كان واقفاً ويداه غارقتان في سرواله وهو يحدق إليها بفضول.
«بالطبع يمكن تأجيل ذلك، في الواقع ليس من الضروري أن أراه.» وأمسك بيدها وهو يبتسم لها بتعبير جعلها تشعر أن دافيد كان حساساً ويعرف بالحدس أكثر مما

يظن معظم الناس. ثم أردف: «تعالي، يا ملاكي، دعيني آخذك بعيداً عن هنا.»
يقع مطعم هيل توب إن على رابية تطل على البلدة الصغيرة، على بعد بضعة أميال عن روزوود. كان مكاناً أنيقاً وبعيداً عن الإدعاء، بأرضيته الخشبية وجدرانه القرميد.
قالت مادلين بعد أن جلسا إلى طاولة في إحدى الزوايا قرب الموقد: «إنه لمكان جميل.»
«إنه خلفية مثالية لك.»
كان ذلك أحد الإطراءات البديهية التي كان الناس يستعملونها في تلميحاتهم، ووجدت مادلين نفسها تستمتع بها قليلاً. تنهدت وهي تهز رأسها ثم قالت: «إنك دائماً تقول ما تمليه المناسبة، يا دافيد. فالإطراء من اختصاصك، أليس كذلك؟»
مال برأسه، وقد ارتسمت على وجهه إمارات من الحيرة المزدوجة بالدهشة وقال: «وهل يزعجك الإطراء؟»
ابتسمت بنعومة وقالت: «لا، بالطبع لا. لكن أحس بأنك تردد ما قلته لي مئات المرات. فقد قلت إنك تمثل الجزء اللطيف في الشراكة القائمة بينك وبين الياس. إنه جزء من عملك، أليس كذلك؟ تعمل على تلطيف الأجواء فيما يعمل الياس على تعكيرها.»
كان غارقاً في سكونه حتى في ما إذا كان يتنفس. ولم يحول عينيه الداكنتين عنها بل بقيتا عالقتين بعينيها. وأخيراً أجاب: «نعم، إنه جزء من عملي وهنا تكمن الصعوبة، أليس كذلك؟» وتقوست شفتاه بابتسامة هازئة

وأشار إلى نادل الشراب وهو يقول: «لا أحد يعلم متى أعني ما أقول فعلاً.»

بعد ست ساعات، وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل كان دافيد يضغط بأصبعه على شفتيه اللتين ارتسمت عليهما ابتسامة سخيفة وقال بصوت هامس: «صه، يجب أن لا توقظي التنين.»

هزت مادلين رأسها بارتباك وهي تتهادى تحت ثقل ذراعه الممدودة حول كتفيها فيما هما يترجلان من السيارة باتجاه البيت. وأعادت عبارتها للمرة العاشرة وهي تتعثر على بلاط الممر الأمامي وقالت: «التنين لا يزال نائمـــاً.»

خاطبت نفسها، فيما تحاول العثور على المفاتيح في داخل حقيبتها، لقد قمت بذلك، بالفعل حتى انتشيت. واتكأت عليه في محاولة لإسناده إلى الحائط على يمين الباب، إلا أنه لم يلبث أن عاد لينزلق إلى الأرض وبعناد لا يرحم، فأسرعت للإمساك به من تحت ذراعيه. وراحت تشد به إلى الأعلى وبطريقة عمودية.

بحركة خرقاء حاول أن يمد يده حول كتفها مجدداً ولكنه لم يفلح إلا في إزاحة شعرها وتحريره من الدبابيس، فطار الزر الذي كان يربط فستانها عند الرقبة.

دفعت الباب برجلها إلى الوراء وهي تئن تحت ثقل جسمه فيما كانت تحاول أن تسحبه إلى الداخل في محاولات يائسة. أسندته مقابل الجدار وحاولت تثبيته بيدها فيما امتدت يدها الأخرى لتضيء النور في الغرفة ثم تحولت مسرعة لإغلاق الباب وإقفاله خلفهما...

إنزلق مجدداً إلى الأرض. وهذه المرة انبسطت قدماه، واتكأ ذقنه على صدره، فيما لا تزال الابتسامة البلهاء مرتسمة على شفتيه، حتى وهو نائم.

تنهدت وهي تحرك رأسها وتتساءل كيف ستستطيع رفعه مجدداً.

تحولت لتضع حقيبتها وشالها على الطاولة في البهو ولم تتمالك نفسها حين رأت الياس متكأ بصمت إلى باب غرفة الجلوس. وتراجعت قليلاً إلى الوراء وقلبها يخفق خفقاناً سريعاً لما أثار وجوده من إجفال.

كان واقفاً، لا ينبس ببنت شفة، وقد غادرت الحيوية عينيه، وخلا وجهه من أي تعبير. وكانت أخاديد عميقة تشق طريقها عبر شعره وكأنه مرر يديه خلاله مرة إثر مرة، وتدلت خصلات عنيدة من شعره الداكن فوق جبينه. نظر إلى حيث كان دافيد مسترخياً على الأرض مقابل الحائط وهو غافل عما يحيط به، ثم عاد لينظر إلى شعرها المنبوش وفستانها المتجعد.

وضعت يدها على شعرها بطريقة لا شعورية قائلة بارتباك ظاهر: «لقد أصيب دافيد بأعياء مفاجيء.»

«ذلك واضح.»

انتظرت أن يكمل حديثه بيد أنها تحولت عنه وقد صار الصمت مربكاً بينهما ومضت لتنحني إلى جانب دافيد وجعلت تملس خصلات شعره الداكنة وتردها إلى الوراء، ثم قالت وهي تتظاهر باللامبالاة: «هل ستساعدني لنرفعه إلى الطابق الأعلى؟»

سمعت وقع خطواته وهو يقترب منها ورأت يديه

العريضتين، القويتين تمتدان وترفعان دافيد. تنحت قليلاً من طريقه. نظر الياس إلى رأس دافيد وهو يتدلى على كتفه ثم نظر إليها وسألها: «إلى غرفتك أم إلى غرفة الضيوف؟»

تنهدت قائلة وهي تغمض عينيها: «بلا مزاح، أرجوك. إني تعبة.»

«وما يجعلك تظنين بأني أمزح؟»

فتحت عينيها ونظرت إليه وهي تحاول أن تقرأ تعابير وجهه، إلا أن وجهه بقي خالياً من أي معنى. تحولت أخيراً إلى إحدى الغرف الملاصقة لغرفتها في الطابق العلوي.

أضاءت نور الغرفة وأزاحت الغطاء عن السرير وتنحت جانباً من الغرفة فيما راح الياس يمدد دافيد على الفراش ويخلع عنه حذاءه، وسترته، ثم غطاه برفق ونعومة يثيران الدهشة، وكأنه أباً يساعد ابنه الصغير في الإيواء إلى فراشه.

تراجع قليلاً إلى الوراء وهو يتمطى فكاد أن يصطدم بها. وصعقا لكونهما قد صارا متلاصقين، التقت أعينهما للحظة، ثم راحا ينظران إلى أسفل وكأنهما قد تملكهما الرعب لما شاهداه في نظراتهما.

أمسكت مادلين عن التنفس، فيما راحت تحدق في يده اليمنى التي باتت قريبة من يدها اليسرى حتى لكادت أناملهما أن تتلامس.

ارتعش بنانه قليلاً وكاد أن يلامس بنانها، وانقطع تنفسها وهي تنتظر وتنظر، وقد ملكتها الدهشة، أناملها ترتفع قليلاً باتجاه أنامله في حركة آلية. وبدت أناملهما

فجأة كأنها مستقلة في كينونتها، وهي تمثل مسرحية لا أحد منهما كان باستطاعته التحكم بها أو السيطرة عليها. وعندما لامست أطراف أناملها، وبطريقة عرضية، ربما، كانت نتيجة الاتصال مذهلة.

خمدت مادلين التنفس ورمقته بطرف عينها فرأت صدره يتقدم على نحو متقطع نحوها. بنظرة مختلسة إلى أعلى رأت التوتر حول ثغره وعينيه، والأخاديد المرتبكة في حاجبيه وهو ينظر إليها عاجزاً عن التحكم في ما كانت يده تقوم به.

راحت أنامله تصعد إلى أعلى يدها وهي تعبر التجاويف في أوتار يدها، ثم أحاطت بالمعصم برفق حتى شعرت بصعوبة في التقاط أنفاسها. وانشقت شفتاها قليلاً من الدهشة وفي محاولة لاستعادة قليل من الهواء فيما كانت عيناها زائغتين. فتحتهما على وسعهما مذهولة.

أدار الياس ظهره سريعاً وقد جعل رأسه ينحني فوق كتفيه وقال بصوت أجش مسموع: «اللعنة عليك.»

مدت يدها لتلمسه وقد انعقد حاجباه في حيرة وقبل أن تلمس يدها ظهره قال: «اخرجي من هنا.» فجمدت في مكانها ويداها لا تزالان ممدودتين في حركة بلهاء.

عندما لم تتحرك أمسك بيدها وراح يجرها إلى البهو ودفع بها بقوة إلى غرفتها. فنظرت إليه وقد أخذت منها الدهشة مأخذاً.

كان يحملق بها وكأن خضرة عينيه كادت أن تنسكب باتجاهها وسألها ببرودة قائلاً: «ما الذي جعلك تظنين أني كنت سأنهي ما بدأه غيري؟»

سكن تعبيرها وشحب لونها وهمست قائلة: «لا أصدق أنك قلت ذلك.» وأسرعت إلى غرفتها فدخلتها وأغلقت الباب وأقفلته وراءها. ولم تدر كم مضى عليها وهي مستندة إلى الباب تحملق في الظلام حين سمعت نقراته على خشب الباب.

سمعته يقول لها من خلال خشب الباب الذي كان يخنق صوته: «مادلين. مادلين، أرجوك. علينا أن نتكلم. دعيني أدخل.»

أخذت تخاطب نفسها وهي تبتسم بمرارة. دعيني أدخل. تلك كانت المشكلة منذ البداية. أدع شخص يدخل، ما كان يجب أن أفعل. تركت نفسي أشعر من جديد، وما كان يجب عليّ ذلك.

«مادي؟ مادي! دعيني أدخل!»

من دون أن تصدر صوتاً راحت تكوّن فوق شفتيها كلمات أغنية ساخرة للأطفال، ثم دفنت وجهها بين يديها.

الفصل العاشر

كان الصباح في منتصفه حين استفاقت مادلين على صوت الرعد وهو يدوي بعيداً. فتمددت ساكنة في فراشها لبرهة من الوقت وهي تحدق في السقف وذهنها شارد ومرتبك. تنهدت أخيراً ونهضت من فراشها واجتازت الغرفة حتى وصلت إلى النافذة ونظرت إلى الطقس المكفهر في الخارج بعد أول عاصفة مطرية. كان كل شيء يبدو مبللاً وكئيباً، حتى حديقة الورد، غرقت في الوحل، وكان ذلك مفيداً لها على ما يبدو.

راحت ترتدي ثيابها بحركة بطيئة تعوزها الحيوية والنشاط فيما كل أحاسيسها مخدرة، حتى أنها لم تعد تجروء على مقابلة الياس بعد الذي جرى في الليلة الماضية. ماذا يهم لو ظن الياس أنها عزمت على مشاركة دافيد المخدع، أو أنها متحجرة القلب إلى درجة أن تقبل ببديل عنه في اللحظة الأخيرة؟ فمجرد إقدامها على عمل كهذا يجعل منها مومساً وامرأة تحيا حياة البغايا. واعتبارها كذلك أفضل، في الوقت الحاضر، من الاشفاق عليها والرثاء للحال الذي هي عليه. امرأة وحيدة تحاول التمسك بأذيال خيالاتها ونزواتها في محاولات يائسة، وقد سلب لبها ذاك الوهم في كونها هي والياس باتا جزأين من وحدة متكاملة، وعاجزين عن مواجهة تلك القوة التي تدفع بهما وتشد عراهما... إلا أن ذلك لم يكن سوى خيالات

شبحية لطفل غير محبوب لم تتح له فرصة النمو بعد.

تجهمت أساريرها وهي تحاول التركيز في مضمون تلك اللحظات المشتتة، حين شعرت بشيء أشبه بسلك كهربائي يربطها به... راحت تخاطب نفسها قائلة، إنك ترغبين في إقامة نوع من الإتحاد الروحي الباطني مع الياس، إلا أن ذلك لم يكن موجوداً قط بالنسبة له.

لقد أرادك إلى جانبه، لأنك الشخص الوحيد الذي يعزف موسيقاه كما يرغب في سماعها. ثم بدأت في تعقيد الأمور بطلبك المزيد، حتى أكرهته على نبذك مرة بعد مرة، وازداد الوضع سوءاً وانعكس ذلك نشازاً في العزف. ابتسمت إبتسامة حزينة لأنها لم تعد قادرة على إسماعه ما كان راغباً في سماعه منها.

قطبت جبينها ورفت أهدابها سريعاً وهي تحبس دموعها فيما كانت ترتدي ثيابها. وضعت ساقيها في جوربين من النسيج الصوفي الناعم وارتدت كنزة صوف رمادية سميكة طويلة، ثم مشطت شعرها وتركته يتهدل حيثما أراد. أما عيناها الرماديتان فكانت تعوزهما الحيوية، تحولت عن النظر إليهما في المرآة بعد أن رمقتهما بنظرة خاطفة.

بدا المنزل تحت رحمة العاصفة الهادرة في الخارج. كان كئيباً وقاتماً كمزاجها وهي تهبط السلم إلى الطابق السفلي، ثم باتجاه الضوء الشاحب الصادر من المطبخ. امتدت يدها لا شعورياً لتلمس بعض الأشياء القائمة في طريقها. الطاولة الأثرية في البهو وإنائها الفارغ من زهور الربيع، والخشب اللماع لهيكل الباب المؤدي إلى

المطبخ. أشياء أخرى لم تدرك وجودها إلا منذ أسبوع، وستبقى عالقة في ذهنها حتى آخر أيامها.

أحست بقلبها يثب من مكانه وهي ترى الياس جالساً إلى طاولة المطبخ.

كان مرتدياً زي الركض السميك من عنقه إلى كاحله. وكان يبدو متوعداً في أساريره، كتلك الطبيعة المكفهرة الموحشة التي كان يحدق إليها من خلال النافذة. إلا أنه بالنسبة لمادلين، بدا أيضاً حاملاً للوعود. كان هناك شيء ما خلف ذلك القناع البارد المخادع الذي كان يغلف وجهه به... شيء ما دافيء ومليء بالحيوية وبالتحديد شيء له قيمة. فقد كان على هذا النحو، شبيهاً بحديقة الورد، وراحت تتساءل إذا كانت قد رأت أياً منهما يزهر.

كانت ذراعاه معقودتين على الطاولة ويداه تحيطان بكوب من القهوة الساخنة. أدار وجهه بسرعة لدى ولوجها الغرفة وتدلت خصلة من شعره الأسود فوق جبينه على شكل فاصلة.

حيّته برقة: «صباح الخير.» وعبرت الطاولة إلى حيث كان إبريق القهوة جاثماً على الرف. وسألته: «أين بيكي؟» وأحست بثقل عينيه عليها فيما كانت تتلمس بارتباك ابريق القهوة.

أجابها: «اليوم يوم سبت، وهي لا تأتي في نهاية الأسبوع.»

رمقته بنظرة فوجدت أنه عاد ليركز اهتمامه على سيول الأمطار المنزلقة على النافذة الزجاجية، ثم ملأت كوبها من تلك القهوة السوداء الحادة واتكأت على الرف.

«أعتقد أن دافيد لن يصحو من نومه قبل ساعات.»

هز برأسه وهو غافل عنها، ولاحظت كم كان يبدو تعباً. رأت بقعاً شاحبة تحت عينيه، وإنه غير حليق، وشعره أشعث وكأنه لم ينم جيداً تلك الليلة. وثبت من مكانها حين أدار وجهه ليجدها تحملق إليه.

قالت بسرعة في محاولة لإخفاء ارتباكها: «تبدو تعباً.»

«وأنت أيضاً.»

هزت بكتفها وراحت تنظر إلى قهوتها وهي تتساءل بماذا تجيب، غير أنه قال بصوت أجش ونبرة رتيبة وكأنه في صدد استظهار خطبة عن ظهر قلب: «أريد أن أحدثك عن ليلة البارحة وعن الموسيقى، وما تعترينني من مشكلات في تأليفها. فكل شيء مرتبط ببعضه بعضاً، كما تعلمين. ولكنني لم أشأ أن أعترف بذلك.»

تشبثت مادلين بكوبها بيأس وأخذت تنظر إليه وكأنه يحوي أسرار العالم ولم تستطع أن تنظر بعيداً ثم غمغمت قائلة: «أعلم ذلك. لست مضطراً لأن تقول شيئاً، فأنا السبب في عدم قدرتك على الكتابة.»

بقي صامتاً لوقت طويل، وجازفت واختلست نظرة إليه وتوهجت وجنتاها بارتباك.

أسند ذقنه بين يديه ونظر من خلال النافذة ثم قال: «إنها غلطتي، لا غلطتك. كان يجب أن احتاط لذلك منذ اليوم الأول الذي التقيتك فيه في شقتك. فقد كان الأمر واضحاً...» توقف قليلاً وقد تجهمت أساريره وتابع قائلاً: «... أن الأحاسيس ستقف حاجزاً أمام أية علاقة عمل بيننا.»

أغمضت مادلين عينيها لبرهة، وقد أحست بعذابها حين راحت تتذكر كيف أنهت حياتها بسرعة وشوق كليين لتلحق

به. وقد بدت حينها كإحدى المعجبات الملتاعات والتائقات لنظرة ورعاية من ذاك الذي كان سبباً في هيامها وافتتانها.

عض الياس على شفتيه وهو يراقبها ثم قال: «لقد كنت أحسب أن غياب المشاعر هو السبب في كل المتاعب، ولكن الليلة الماضية اكتشفت أنني مخطىء، أليس كذلك؟» قال ذلك ثم استطرد: «أنا أعرف أن ذلك لا يفيد بشيء لكن الليلة الماضية... بعد وضوح كل شيء... تهدم السد المنيع. ولم أستطع التوقف عن الكتابة. بقيت طيلة الليل أعمل حتى أنهيت أغنية العنوان.»

حاولت مادلين أن تبقي مشاعرها دفينة في أعماقها. فجأة لم يعد يهمها شيء مهما كان. العزف هو كل ما يريد منها، ولم يعد يهمها إذا تركت فلذة من قلبها في مكان مؤقت جديد، فكل ما كان يهمها هو اليوم وربما غداً، أن تخرج وإياه الموسيقى إلى حيز الوجود، وأن تبقى إلى جانبه أطول مدة ممكنة.

تابع الياس قائلاً: «ليس علينا أن نشعر المشاعر والأحاسيس نفسها تجاه بعضنا بعضاً كي نصنع الموسيقى العظيمة، يا مادلين. وحتى لو كانت الموسيقى هي كل ما نقوم به سوية، فهي أكثر بكثير مما يستطيع الناس تحقيقه في حياتهم.» كانت عيناه وهو يتكلم بليغتين في نظرتهما العميقة باخضرارها، لطيفة وناعمة بما تكنه من احساس غير مقروء.

إبتلعت ريقها بصعوبة وحاولت أن تحبس دموعها. هذا معنى كلامهم، عندما تكلم الشعراء القدامى عن الحب الذي لا يعوّض ولا يجازى. فهذا ما يعتبرونه آلام التضحية بكل شيء... في تقديم حياتك وكبريائك وآخر معاقل احترام

الذات على مذبح التضحية... من أجل أن تكون قريباً من الإنسان الذي لا يمكن أن تعيش في منأى عنه حتى وأنت تعلم أن شعورك لن يكون متبادلاً.

راحا يحملقان ببعضهما بعضاً فيما حل صمت مطبق واضح مرتبك بينهما حتى كاد أن يملأ الغرفة ويخنقهما معاً، دخل دافيد فجأة إلى الغرفة بسرعة وفي اهتياج صاخب، مثل ولد صغير بريء يخرج من الكنيسة، لا كرجل كان يعاني من الآثار البغيضة التي يسببها الإسراف في الشراب. وألقى التحية عليهما قائلاً: «عمتما صباحاً.»

حاولت مادلين أن تستجلب ابتسامة بارعة إلا أنها اخفقت في ذلك.

ضحك دافيد وهو ينظر إليها وقال: «أعتقد أنك حملتني على ظهرك ليلة البارحة؟»

هزت برأسها وهي تشير إلى الياس وانحنى دافيد انحناءة ساخرة وقال: «شكراً، يا صديقي القديم، واعتذاري منك، يا ملاكي.» مشى إلى حيث كانت جالسة فجثا على ركبتيه قبالتها وقد بدت قسمات وجهه نادمة على نحو ساخر وأردف قائلاً: «لقد تصرفت بفظاعة ليلة البارحة، ولك كل الحق في أن تغضبي مني... مع أني واثق من عدم قدرتي على احتمال ذلك إذا حصل.» وارتفعت عيناه السوداوان وهما تستميحان المغفرة منها، غير أن مادلين شعرت بتيار خفي من الندم الحقيقي.

قالت بهدوء: «لا بأس عليك، يا دافيد.» فيما كان يقف ويبتسم بابتهاج وقد ترك فيها شعوراً بالغباء كونها صدقت جديته.

قال وهو ينظر إلى الياس: «الحقيقة، أنها حاولت أن تضيع رشدي ثم حاولت أن تصل إلى مبتغاها مني. لكنني قاومت حتى النهاية. وأظن أنك فخور بذلك.»

هزت مادلين رأسها بارتباك ظاهر، أما الياس فرفع أحد حاجبيه الداكنين وقال بجدية ظاهرة: «الحقيقة هي أنه في كل تلك السنوات التي قضيناها معاً، لم ألمحك أبداً بهذه الصورة.» وبعد تردد بسيط حدج دافيد بنظرة متمعنة وتابع قائلاً: «لماذا ليلة البارحة بالضبط؟»

توقف دافيد عن الضحك لحظة، ثم اخفى ارتباكه بضحكة متوترة وهزة كتف ملؤها الاستنكار وقال: «أعتقد أنه هناك دائماً أول مرة في كل شيء.» ووثبت مادلين من مكانها لدى تصفيقه بيديه وتابع قائلاً: «الآن، من يريد أفضل عجة لم يذق أحد مثلها في حياته؟» عبر إلى البراد في خطوتين طويلتين ثم دلف بجسمه في الأعماق وهو يفتش في محتوياته قائلاً: «هلاّ أحضرتِ بعض الصحون، يا ملاكي؟ لدينا الكثير من الأعمال لنناقشها معاً. ومناقشة الأعمال تصبح أفضل مع الأكل.»

راح يثرثر على نحو متواصل، فيما هو يحضر العجة، بسيل من المواضيع المتشابكة، سائلاً نفسه تارةً، ومجيباً عن أسئلته طوراً، وهو غافل عن صمت رفيقيه.

جلسوا جميعاً إلى الطاولة. دافيد على رأسها والياس ومادلين في الجهتين المتقابلتين وتغيرت نبرة دافيد وتصرفه وصارا أكثر جدية.

إستهل قائلاً بكآبة وهو يقطع العجة بشوكته ويتفحص اللقمة قبل ادخالها في فمه: «حسناً يا

ولـدّي، هـل أنتما جاهزان لكي تصبحا نجمين؟»

اختلسا، الياس ومادلين، نظرة خاطفة إلى بعضهما بعضاً ثم تحولا إلى دافيد وهما حريصان على إبقاء تعبيرهما طبيعياً وسأله الياس قائلاً: «عمّ تتكلم؟»

ضحك دافيد وهو يهز حاجبيه وقال: «فكرة بارعة لتحقيق هدف وجعلنا أثرياء.» وتابع قائلاً: «أعلم انك لا تعير الناحية المادية اهتمامك، يا الياس، ولكن لا أحد غيرك حول هذه الطاولة يملك حسابك في المصرف. بالإضافة إلى ذلك، كلما كانت الدعاية للفيلم ولاسطوانته جيدة، ازداد مبيع أشرطة التسجيل وازداد استماع الناس لموسيقاك وهذا كل ما يهمك، أليس كذلك؟»

أذعن الياس لفكرة دافيد بهزة مترددة من كتفه وقال: «وما هو شأني أنا ومادلين في أن نصبح نجمين؟ فنحن بصدد تسجيل الأغنية للفيلم وليس الظهور فيه.»

ابتسم دافيد ابتسامة النصر قائلاً: «ربما لا، لكنما ستمثلان. لقد أخبرت المنتج عن ملاكي هذا. فهو يريدكما أن تظهرا على غلاف الألبوم. ألم تفقها بعد، ما أقول؟ وسيكون للصحافة اجتماع في الهواء الطلق. فالفن يحاكي الحياة إلى آخر المعزوفة. وعندما ينتهي كل هذا ستصبحان الثنائي العاطفي الأكثر تشويقاً منذ...» توقف ورمق وجه مادلين الخالي من أية ردة فعل، ثم قال متابعاً: «ما الخطب، يا ملاكي؟»

جلست ساكنة تنظر إلى وجه الياس وسألته في نبرة خفيفة: «ماذا تعني بعبارة الفن يحاكي الحياة؟»

هز كتفه، ثم ابتسم بارتباك قائلاً: «لم أعن أنها كانت

بالطبع، فقط كل شخص سوف يعتقد أنها كانت.» استمر في ابتسامته تلك إلى أن انتبه إلى عدم إدراكها لما كان يتفوه به فقال: «الفيلم، يا مادلين. الحبكة. مؤلف موسيقى مزاجي في قصة حب عاصفة مع عازفته...»

استوقفته نظرتها فقال لها: «ألم تعرفي، بعد ما هو محتوى الفيلم؟»

هزت مادلين برأسها وقد خدرتها هذه المصادفة الخاطئة والمحرفة. فهذا ليس بالفن الذي يحاكي الحياة، إنما الفن الذي يسخر من خيالاتها ونزواتها الكامنة في أغوار نفسها. وهمست بسرعة قائلة: «لا أستطيع ذلك.» ورأت الياس، من طرف عينها وهو يهز رأسه وينظر من خلال النافذة وقد استدق فكه.

تابع دافيد حديثه في محاولة لإقناعها: «لا تكوني سخيفة، إنها مجرد صورة، ولا ننسى أنها ستدر عليك كثيراً من المال. فصورة دعائية بارعة كهذه ستفتح المجال لأرباح هائلة من الأسطوانات.»

أخذت نفساً عميقاً وحاولت أن تبتسم إلا أنها أخفقت. فلم يكن هناك من طريقة لإفهام دافيد من دون أن تصرخ بالحقيقة عالياً. كيف سيفهم أن الشيء الوحيد الذي كانت تريده من حياتها هذه، هو أن يقع الياس، في حبها؟ وأن مجرد مشاهدتها الياس وهو يدّعي أنه يحبها أمام الكاميرا، مع علمها بأنها خدعة، كان أكثر مما تستطيع تحمله؟ ونظرت إلى يديها وهما ترتعشان بتوتر فوق حضنها وحاولت أن تستجمع قواها.

عندما نظرت أمامها مجدداً، كانت أكثر رباطة جأش،

فيما كانت ابتسامتها باردة. وقالت: «إذا كان هذا من أجل مصلحة العمل فعلاً، يا دافيد، لأن أظهر على الغلاف، يمكنك أن تستخدم أحداً غيري... يكون أكثر ملاءمة. عارضة أزياء، ربما.»

هز دافيد رأسه وقال: «لا، فالمؤلف الحقيقي والعازفة الحقيقية... هما اللذان سيكونان وراء نجاح هذا الشيء، وتسويقه. بالإضافة إلى ذلك فقد حضرنا جلسة التصوير وقد وعدت المنتج بأنكما وافقتما على الاشتراك. فأنا من باعه الفكرة، يا ملاكي.»

شعرت مادلين بأن أحشاءها تغادر جسدها ولن يبقى في داخلها شيء. وسوف تصبح مثل الصدفة الفارغة. وردت بحدة قائلة: «ما كان يجب أن تفعل ذلك.»

هز الياس برأسه وهو يحملق فيها فلم تستطع إلا أن تشحب تحت تأثير نظراته الخضراء الباردة. وعندما بحثت عن الأمان والراحة في وجهه لم تعثر إلا على قلة الصبر ومسحة من الغضب.

رد دافيد قائلاً: «إنها مجرد صورة يا مادلين. فهي لا تعني شيئاً. فلا يتوجب عليكما أن تعجبا ببعضكما بعضاً...» تردد قليلاً وعيناه تتحولان من واحد إلى آخر.

قاطعه الياس فجأة قائلاً بنبرة شبيهة باصطدام الجزء الضارب من المعدن بالفولاذ البارد: «إنها محقة. يمكننا استخدام عارضة. فلن يفقه الجمهور الفرق.»

هزت مادلين برأسها وهي مستعجلة الإجابة قائلة «وجهي ليس ملائماً للتصوير ويمكنك أن تقع على أحد غيري ممن يستوفون الشروط.» وفجأة تحولت نظرتها

أكثر حدة ونظرت إلى الياس وهي تقول: «بيكي مثلاً.»

حملق الياس بها، من دون أن ينبس ببنت شفة، فيما استعجل دافيد بالكلام مقاطعاً: «بيكي؟ إنك تمزحين.»

سألته مادلين: «وهل تعرفها؟»

«بالطبع أعرف عنها، فالياس يتكلم عنها معظم الوقت...» فأجفلت مادلين قليلاً لهذه العبارة، فيما تابع دافيد مخاطباً: «... لكننا لم نلتق بعد ولكن لم يخطر على بالي قط أن استخدمها لعمل كهذا...»

قاطعته مادلين وهي تحاول إخفاء ألمها وقالت: «ولما لا؟ فهي ستكون رائعة. إنها واحدة من أجمل النساء اللواتي التقيتهن في حياتي. سيفرح المنتج لدى وضع صورتها على غلاف الألبوم، وإنني واثقة من أنها ستفعل ذلك بملء خاطرها.»

شعرت بنظرة الياس الباردة. وعندما نظرت إليه هز كتفيه.

قال الياس موجهاً حديثه إلى دافيد: «ربما ستوافق على القيام بذلك. وماذا يهم من يحتل الغلاف، طالما أن الجمهور قد قبل بالفكرة؟»

تجهم وجه دافيد، ولكنه، بعد تقييمه لمدى التوتر بين الياس ومادلين، تنهد مستسلماً وقال: «حسناً، إذا كنتما ترتئيان أخذها بعين الاعتبار، فسنفعل ذلك.» ثم هز كتفه مرة وكأن القرار كان غير منطقي.

وقف الياس فجأة قائلاً: «هيا بنا، سأتبعك حتى وصولنا إلى الضيعة. ثم نتوقف عند بيكي حيث يمكنك الاجتماع بها بنفسك.»

وقف دافيد وعيناه الداكنتان تلمعان في فوضى وقال وهو يفرك يديه في محاولة ظاهرة، مليئة بنوايا الفسق

www.Rewity.com

والدعارة، إلا أن جواب الياس أرجعه القهقرى وقد بات مرعوباً.

«لا تفكر فيها أبداً هكذا، يا دافيد.» فيما كانت عيناه تلتمعان بدفاع ظاهر. وتابع قائلاً: «ابعد بيكي بعيداً عن هذه الأشياء.»

رفع دافيد أحد حاجبيه وكأنه قد تعرض لهجوم وقال: «أعلم ذلك. لطالما كنت أعلم هذا.»

أغمضت مادلين عينيها وتحولت بهما بعيداً. فلم يجب أن تتألم كثيراً لدى سماعها الياس يقول بصوت عال ما كانت تعلمه منذ فترة طويلة، إلا أنها تألمت نوعاً ما.

كان دافيد واقفاً بقربها وهو يبتسم لها ابتسامة غامضة. ومد يده وأخذ ذقنها بين راحته بأصابعه بلطف وقال: «اتصلي بي، يا ملاكي، في أي وقت.» وتحولت نظراته إلى الياس قائلاً: «لا تمانع في أن تتصل بي مادلين؟»

نظر إليها نظرة باردة وقال: «يمكنها أن تفعل ما يحلو لها. لنخرج الآن من هنا.»

بقيت مادلين جالسة مكانها وهي ساكنة بعد انصرافهما بسيارتيهما.

فكرت بحزن، لو كان لي أصدقاء لكنت اتصلت بهم الآن ولكنّا تبادلنا أطراف الأحاديث وضحكنا وربما بكينا قليلاً، ثم لكنت شعرت بتحسن. وقفت بعد وقت طويل، مثل امرأة طاعنة في السن ومشت ببطء ومن دون حيوية عبر البيت إلى ردهة الاستقبال، وجلست هناك في مواجهة صديقها الأوحد ووضعت يديها على لوحة المفاتيح، وأخذت تتكلم الحاناً.

في الخارج كان المطر لا يزال ينهمر.

الفصل الحادي عشر

صرفت مادلين الأسبوع التالي وهي تحاول أن تنساب مجدداً إلى داخل عالمها الخاص الذي كان ملاذها قبل أن يدخل الياس حياتها. فقد كان مكاناً آمناً ومريحاً ولم تكن تسمح لأحد بأن يدلف إلى داخله، والحقيقة أنها كانت، وعلى مر السنين، قد تعلمت أن تعمل جيداً فيه، وهي تشعر بالأمان خلف جدران اللامبالاة المنيعة إلا أن الرجوع إلى داخل عالمها الخاص، كان أصعب مما تصورت.

أنا مجرد موظفة، وبالتحديد عازفة بيانو مأجورة تعمل عند الياس، هذا ما كانت تقوله لنفسها باستمرار، لكن وجودها معه في الغرفة نفسها كان شيئاً في غاية الإيلام. وعلمها بأنه لن يشعر الشعور نفسه تجاهها، لم يخمد بريق خضرة عينيه أو يقلّل من تأثير حضوره. ولم تستطع منع قلبها من التحليق في نشوة عارمة، في كل مرة كان يدخل فيها الغرفة وهو مقطب الحاجبين، مشدود الفك وهو يكظم غيظه الصامت اللامقروء، وهكذا شأنه منذ أن أحبطت مادلين فكرة ظهورها على غلاف الأسطوانة.

نسيان العالم أجمع كان أسهل من أن تنسى الياس. كانت بيكي وعلى مدى أيام الأسبوع الفائت، قد تحولت إلى ظلال شبح صامت، حاضر دائماً عند نهوضها من نومها ويغيب مع حلول المساء. كانت بيكي قد اتخذت موقفاً أكثر عدائية إزاءها، تماماً مثل الياس. غير أن مادلين لم تكن لتعير

موقفها أية أهمية. إن موقف بيكي كان بالنسبة لها أشبه بطنين ذبابة غاضبة سرعان ما كانت تتخلص منها.

حلول الربيع لم يهز أوتار مشاعرها إلا قليلاً. ولم تلبث تلك السعادة التي كانت تجدها في حديقة الورد أن غادرتها. إلا أنها ظلت تعتني بحديقتها هذه وترعى ورودها كل صباح، فيما كان الياس عاكفاً على عمله في الاستديو، ولم تعد مادلين تشعر بالفرح وهي تقع على نبتة تهفو إلى الحياة بين يديها. وحل مكان هذا الشعور إحساس بأن عملها هذا ليس إلا لغرض منفعي، وكأن إعادة الحديقة إلى الحياة عمل ممل، خال من الفرح ولكنها وظيفة كان عليها أن تضطلع بها لسبب لم تكن تدركه أو تتذكره.

أما الشيء الوحيد الذي كان يهز أوتار قلبها، ويهدد باستمرار بتحطيم الحواجز الباردة التي كانت تقيمها حولها، كان النمط الموسيقي الجديد الذي كان الياس يؤلفه. إنها موسيقاه من دون شك... واضحة وبراقة وحادة بشكل مذهل... لكن، نوعاً ما لم تكن تستطيع تحديد ذلك بدقة، لأنه يختلف اختلافاً شاسعاً عن كل ما كتبه في الماضي. وللمرة الأولى لم تشعر بأن موسيقاه تتكلم معها مباشرة وأنها هي الوحيدة التي تستطيع أن تشعر بلمسات روحه المعذبة وترجمتها إلى العالم. ما زال قلبها يرتفع من مكانه فيما كانت تعزف موسيقاه، غير أن هذه الموسيقى قد باتت موجهة لجمهور أكبر، جمهور كبير تضيع في تعداده.

في يوم الأربعاء، أدركت مادلين ما لم يدركه الياس بعد... أن هذه الموسيقى الجديدة ليست لهما وحدهما، وأن صوت تلك الموسيقى ملك للجميع لأنها تعكس تموجات

الفرح وغصات الحزن لكل من أحب وتاق إلى الوصال وفقد حبيبه. كانت تلك الموسيقى من النوع الذي يمكن عزفه أمام آلاف الجماهير فتهز كيانهم، كل واحد بمفرده، لأنها كانت أغنية التجربة الإنسانية المشتركة بين جميع البشر.

في صباح الجمعة، جلست مادلين أمام مرآتها في غرفتها الصغيرة، التي باتت تشعر بأنها صارت حقاً غرفتها الخاصة، وراحت تحدق في انعكاس صورتها في المرآة وهي غارقة في تفكيرها. لقد تغيرت تلك الصورة قليلاً، في هذا الوقت القصير الذي أمضته في مقرها الجديد. وكان جسمها يتمتع بقوة جديدة وقد نهل من الهواء العليل واستقوت عضلاته من جراء التمارين. وكانت هالة من العافية تحيط بها، بديلاً عما كان ينتابها من شحوب وتوعك. أسبغت الشمس على بشرتها لوناً جديداً وسرقت اللون من شعرها، في إظهار جديد للتوازن الذي تحافظ الطبيعة عليه. أما عيناها فلم يتغير لونهما الرمادي، إلا أنهما كانتا خاليتين من الأحلام.

مشطت شعرها بتأنٍ حتى صار أشبه بموجة لطيفة فوق كتفيها، وارتدت على الفور فستاناً قطنياً زهري اللون عارياً عند الرقبة والكتفين. وفكرت أنه يشبه ما كانت بنات المزارعين يرتدين أو ما يلبسنه نساء نيويورك في نزهات الأحد في السنترال بارك. كان زياً مناسباً لأعمال البستنة، غير أنها لم تكن تنوي العمل في الحديقة في ذلك اليوم.

بعد تنهدات عدة، وضعت فرشاة الشعر على الطاولة بتأنٍ ظاهر ونزلت إلى الطابق السفلي.

رمقتها بيكي بنظرة اشمئزاز ظاهر وهي في المطبخ

تحرك شيئاً ما، موضوعاً فوق الموقد. وقالت بامتعاض وهي تشير إلى فستانها الزهري: «لا يليق هذا الزي لأعمال البستنة.»

ابتسمت مادلين ابتسامة خفيفة ونظرت إلى بيكي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تراها فيها هذا الأسبوع. ولا غرو أن يكون الياس قد أعجب بها. فلم يكن بنطالها الشاحب اللون وقميصها المصنوع من القماش القطني المتين يقللان من عافيتها وجمال جسدها، وبدت عيناها السوداوان وحتى من دون صباغات، تجيشان وتموران بقوة سحرية غريبة. شعرها كان مردوداً إلى الوراء، وقد عقصت بضع خصلات رطبة ففرّت لتتدلى فوق أذنيها. وتمتمت قائلة: «ستبدوان رائعين أنت والياس على غلاف الأسطوانة.»

التمعت عينا بيكي بالتماعة غضب وقالت بصوت مقصود به إثارة الشك: «لقد قمت بترتيب كل هذا، على أحسن ما يرام، أليس كذلك؟ ما كان ليكلفك أي شيء لو أن تظهري على الغلاف، إلا أنك لم تزعجي نفسك للقيام بذلك.»

أرخت مادلين فكها ورفّت أهدابها بطريقة حمقاء وهي تتساءل ما الذي جعلها تغضب، بدل أن تكون فرصة وقوفها مع الرجل الذي تحب، لأخذ صورة سوف تكون محط أنظار العالم، قد افتنتها. قالت وهي غير مصدقة: «كنت أعتقد أنك ستفرحين لذلك، يا بيكي.»

ردت بيكي قائلة: «إنني سعيدة لذلك، وسأفعل أي شيء من أجل الياس.»

قالت مادلين وقد تجهمت أساريرها قليلاً: «حسناً إذن،

لن يكون هناك فرق كبير في من سيقف معه طالما أن الجمهور سيظن بأنك عازفته، ولن يؤثر ذلك على نوع الغلاف أو رقم المبيعات...»

أتت ضحكة مخيفة. وأجابت ببرودة هذه المرة: «لا، لا أعتقد أنه سيكون هناك فرق كبير.» وانتشلت الملعقة من أعلى الموقد وراحت تحرك بغضب ما كان داخل الابريق. ثم قالت: «لا تنسي أنك ستذهبين غداً إلى جلسة التصوير. فقد قال دافيد إن المنتج يريد سماع أغنية اللحن الرئيسي وعليك أن تعزفيها.»

أحست مادلين بشيء أشبه بالغثيان وهمست وقد فارقتها أحاسيسها: «لم يقل لي أحد بأن علي أن أذهب.»

رمقتها بيكي بنظرة وقد غادرت وجهها إمارات الغضب وهي تحدق في وجه مادلين الحزين ثم قالت: «لا تقولي لي بأنك مضطربة لعزفك في الغد أمام المنتج؟»

انفرج ثغر مادلين عن ابتسامة خاوية وقالت: «لا، بالطبع لا.» ثم طافت بنظرها حول الغرفة بجمود ظاهر وهي تخاطب نفسها قائلة بأنها ستعالج أمر الغد عندما يأتي الغد. موسيقى الياس في غرفة محتشدة بالناس... وهي تفتح روحها لمَ يريد أن يسمع... وبعد فترة من الوقت أغمضت عينيها ورفعت يدها لتضغط باصبعيها في ما بين حاجبيها وكأنها تدفع بأفكارها إلى الوراء حتى لا تجهر بمضمونها. وسكن صوتها وهي تنظر إلى بيكي مجدداً وتقول: «أعتقد بأنني سأقود السيارة إلى القرية اليوم، هل تظنين بأن الياس سيدعني أستعملها؟»

هزت بيكي كتفها قائلة: «أستطيع أن أحضر لك ما تريدينه من القرية، وأجلبه لك نهار الاثنين، فماذا تبغين؟»

نظرت مادلين إلى الأرض وقد عضت على شفتها السفلى بأسنانها ثم قالت: «في الواقع... كنت أفكر بشراء بعض الطلاء للمنزل...»

راحت الملعقة التي كانت بيكي ممسكة بها تطقطق على الابريق ثم استدارت في حركة بطيئة وهي تنظر إلى مادلين قائلة: «هل تريدين طلاء البيت؟»

ترددت مادلين ثم أومأت برأسها قائلة: «أريد طلاء المظلات وربما محيط النوافذ...»

ضاقت حدقتا بيكي ثم قالت: «لماذا تريدين فعل هذا بحق السماء؟»

نظرت مادلين بعيداً وهي تهمس في سرها: لماذا، بالفعل لماذا؟ فكيف ينبغي عليها أن تفسر شيئاً كهذا لامرأة مثل بيكي وهي التي تملك بيتاً، مكاناً تأوي إليه؟

لمرة واحدة في عمر الزمن، كانت مادلين تريد أن تترك بصماتها على مكان ملك قلبها، قبل أن تكره على مغادرته، وتغيره كما فعلت بالأمكنة الأخرى، وأن تترك أثراً منها، يشير إلى أن مادلين شمبرز كانت هنا، وأنها أحدثت تغييراً. وأضافت قائلة: «إن البيت يحتاج لذلك.» وهي تعلم أن بيكي لن تفقه أبداً السبب الرئيسي الكامن وراء ذلك. وتابعت: «لقد أصبح معظم الخشب عارياً، وسيغزوه العفن قريباً إذا لم نبد اهتماماً بحمايته من الطقس.»

«وما همك مما سيصيب البيت؟»

إرتعش أحد حاجبيها قليلاً وردت: «إنه لمنزل جميل.»

وقد شعرت بأنه يترتب عليها أن تقوم بتجديد البيت، لأنها إذا لم تفعل ذلك فلن يقوم أحد به.

ردت بيكي بغضب وهي تدير ظهرها نحو الموقد: «حسناً، من الأفضل أن تسألي الياس قبل أن تقومي بأي عمل.»

قالت مادلين وهي تعبر أرض المطبخ باتجاه الباب الخلفي وقد جلبت معها فنجاناً من القهوة: «سأفعل ذلك.»

بدت حديقة الورد وكأنها تعنّفها على هجرانها لها فيما هي تمشي بسرعة باتجاه الاستديو. وملأت خياشيمها رائحة الأرض المقلوبة حديثاً، ولاحقتها تلك الرائحة الذكية طول الطريق وهي تعبر الممر والمرج الكبير. سوف أفتقد ذلك، فكرت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة. حين يقع المقدّر وأغادر هذا المكان سأفتقد الكثير من الأشياء وفي مقدمتها رائحة الأرض الذكية هذه.

ترددت وهي تقف قرب باب الاستوديو الثقيل وأخذت نفساً عميقاً ثم دفعته إلى الوراء فدار بصمت على مصراعيه.

لم يشعر الياس بقدومها. فقد كان مستغرقاً في أحد الحانه وهو يجمع نغماته على لوحة المفاتيح بيد واحدة. وكانت يده الأخرى ممسكة بذقنه ومرفقه مستند إلى رف البيانو.

لم تلتقه أبداً على هذا النحو من الاستغراق الفكري قبلاً؛ ولم تره قط وهو غافل عنها، لا يدرك أنها تنظر إليه. وشعرت بشبه موجة من الحنان غير المتوقع، يغمرها فجأة أمام هذا المنظر.

فقد كان مرتدياً رداء أبيض قصيراً من الوبر، فيما كانت

www.Rewity.com

ساقاه وقدماه عارية، وكانت خصلات شعره الصبيانية السوداء والمتشابكة تتدلى فوق جبينه ومؤخرة عنقه. ولشدة ما أدهشها بابتسامته الكئيبة وهو يطن على لوحة المفاتيح في دندنة لأحد الالحان، الذي تبينت أنه يشبه لحن تشوبستكس.

خالت مادلين أن هذه اللحظة سوف تبقى عالقة في ذهنها حتى آخر أيامها وهي تنظر إليه في وضعه هذا.

قالت بهدوء: «أظن أنك عزفت هذه المقطوعة قبل الآن.»

أدار وجهه نحوها لدى سماعه صوتها ورأت في الحال أن القناع الذي غلّف وجه الياس شيبرد لعدة أسابيع أخذ يزول ليحل محله قناع جديد هي بصدد مشاهدته للمرة الأولى. فقد كانت عيناه في حيرة عند تفحصه لفستانها الزهري، وخالت أنها تعاني الاضطراب عينه الذي كان ينتابه أيضاً.

قال: «لم أرك قطّ في زيك هذا.»

ردت وهي تنظر إلى ردائه الوبري مبتسمة: «لم أرك قط في لباسك هذا.» ابتسم لها ابتسامة جعلته يبدو صبيانياً من جديد.

نظر إلى لوحة المفاتيح وهز رأسه بارتباك بسيط وقال: «لقد خرجت لتوي من الحمام، ولسبب ما لم أستطع أن أحرر هذه الأغنية السخيفة من رأسي هذا الصباح. وكأني بها إحدى أغنيات الأولاد القصيرة والسهلة في مضمونها. أتتذكرينها؟» وراح يضغط بلطف على المفاتيح في حركة مألوفة.

لم تعد تذكر ما إذا كانت قد اجتازت الحجرة لتجلس قربه

على مقعد البيانو بعد تردد لحظة، وضعت يديها على لوحة المفاتيح الغليظة. وكل ما كانت تعلمه أنها شعرت فجأة بأنهما جنباً إلى جنب، وهما يبتسمان ابتسامة عريضة للوحة المفاتيح فيما تعالى من البيانو لحن مضاف على سبيل المصاحبة وكان ذلك أشبه بالسنفونية المختصرة.

أخيراً، وكأن النهاية كانت مدبرة بتأنٍ، فقد أصعدا نغمة أخيرة ثم راحا يبتسمان فوق لوحة المفاتيح وهما يشخصان إلى بعضهما البعض لفترة تجاوزت حدود المعقول.

حولت مادلين نظرها عنه وقد شعرت بإحباط، وعبست وهي تنظر إلى الأيدي الأربع المرتاحة فوق المفاتيح. وبدا الصمت مربكاً. ثم أصبح خلال ثوان غير محتمل، قالت فجأة ومن دون تفكير: «أريد أن أدهن مظلات النوافذ.»

اهتزت يداه على المفاتيح وقال متعجباً: «ماذا؟»

ضغطت مادلين على شفتيها وقد احمر وجهها. وراحت تثرثر من دون أن تتحكم بصوتها وقالت: «المظلات، أريد أن أطلي المظلات لأنها متشظية وعارية في عدة أماكن، وسيتعرض الخشب للعفن إذا لم يتول أحد الاهتمام به و...»

«مادي.»

أطبقت فمها وأغمضت عينيها فجأة وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت: «ماذا تريد؟» ولم تستطع أن تتحول بنظرها إليه.

«لم آت بك إلى هنا لتجددي البيت. لا أريد طلاء هذه المظلات. دعيها تعفن وتهترىء.»

تطايرت خصلات شعرها وهي تدير برأسها لتواجهه وقد جحظت عيناها الشاحبتان وشعرت باحباط شديد. قالت

وهي تسيطر على صوتها لإبقائه ثابتاً: «ما الخطب بينك وبين هذا البيت؟»

فأجابها ببساطة: «إني أكره هذا البيت.»

عضت مادلين على شفتيها وقطبت جبينها وقالت: «إنه لضرب من الجنون في أن تكره مكاناً.» وترددت قليلاً ثم أضافت بتوتر: «فأنت لا تدرك كم أنت محظوظ لكونك تملك بيتاً كهذا، لو لم تملك بيتاً قط، لو لم يكن لك بيت دائم، لكنت ادركت كم أنت محظوظاً...» توقفت فجأة بعد أن أعادت عيناه إلى الحياة، موجة براقة من الفضول وعدم التصديق.

سألها بسرعة: «ألم يكن لديك بيت؟» فيما راحت يداه تمتدان إليها.

حولت يديها إلى حضنها وحملقت فيهما وهي تعض على شفتيها بغضب وغمغمت قائلة: «لقد كان عندي العديد من البيوت.»

«هل كانت أسرتك تتنقل كثيراً؟»

هزت برأسها عابسة وهي ترفض أن تنظر إليه وقالت: «لم يكن لدي عائلة، وقد صرفت طفولتي في بيوت الرعاية... في الكثير منها.» وشرعت تنصت إلى صوت تنهده، وتلى ذلك صمت مطبق. ورفعت أخيراً عينيها بارتباك فرأته يحدق فيها. ثم يقول بهدوء: «إطلي المظلات، وكل البيت إذا أردت.»

الفصل الثاني عشر

استغرقت مادلين في تفكيرها فيما كانت تطوف شوارع برايتون سكوير بحثاً عن طلاء لدهن منزل الياس. وراحت تخاطب نفسها قائلة إن ربات البيوت يقمن بأعمال مشابهة لهذه. وكانت هذه الفكرة، على اقترابها من حدود الخيال، تنير قلبها. توقفت لتمعن النظر إلى واجهات المتاجر وابتسمت وهي تومىء برأسها لكل من كانت تلتقيه، وشعرت لفترة من الوقت على الأقل، أنها باتت جزءاً من المدينة، وأن المدينة بدورها قد باتت جزءاً منها. في تلك الأمسية تحولت مادلين شمبرز، تلك المرأة الكئيبة والمستوحشة... التي كانت تمقت النظرات الجانبية التي كان يرمقها بها المارة الغرباء والمتعجبون أبداً من مظهرها الخارجي الشاحب... وحلت مكانها صورتها في الثوب الزهري اللماع الذي اقترن بلون وجنتيها. امرأة، فكرت مادلين أنها قد تعجب بها ولم يعد هناك من أثر لهذه الإنسانة الشاحبة، المكفهرة اللون، في انعكاس صورتها على زجاج واجهات المحلات ونوافذها.

عندما وصلت إلى روزوود كانت بيكي قد انصرفت إلى بيتها والياس منعزلاً في الاستديو. وأصبح البيت وما حوله ملكاً لها وحدها. استبدلت فستانها ببنطال جينز رث وقميص قديم ونزلت إلى الطابق السفلي لتبدأ بالطلي.

أحاطت المظلات، بلونها الأخضر الشاحب والمتشظي

بالنوافذ الأمامية فجعلتها تبدو صغيرة راقدة. وقررت مادلين، من دون سابق تصميم، أن تختار اللون الأبيض اللماع لتغطي به اللون الأخضر. وراحت تحادث البيت على نحو سخيف وصبياني وهي تبلل فرشاتها وتبدأ بدهن إحدى هذه المظلات. قالت وهي ممسكة بالفرشاة: «سيجعلك هذا تنتفض من سباتك؛ سوف ترى؛ فلن تبدو خالياً أو مهجوراً بعد اليوم. ستبدو مختلفاً؛ ستؤول إلى تبدل، وكل هذا بفضلي أنا.» وراحت تعمل باجتهاد، وتأنٍ ومحبة وهي تحول البيت، كما حولت قبله حديقة الورد.

عندما انتهت من طلاء المظلات كان لون ذراعيها ووجهها النحاسي قد امتلأ ببقع بيضاء، وخصلات من شعرها وقد بلّلها العرق متدلية فوق جبينها. والشمس قد زحفت إلى بيتها المسائي في الجهة الغربية من الأفق. وتراجعت مادلين قليلاً إلى الوراء وهي ممسكة بفرشاتها المبللة، ومالت برأسها وهي تنظر إلى البيت في محاولة لتقييم عملها، وابتسمت لما قامت به يداها.

أنشأت أشعة الشمس تنزلق على النوافذ التي بدت ضخمة وهي تمد اذرعها البيضاء وكأنها ترحب بالعالم. وبدت حجارة القرميد التي كانت شاحبة فيما مضى دافئة ومتوهجة بلونها الوردي وكأن للمنزل وجنتين، وقد احمرتا، وهو مرتبك قليلاً بجديده.

أطرت على ما قامت به واستحسنت عملها ثم تمطت في محاولة لتخفيف الألم المبرح في عضلات كتفيها، فيما راحت عيناها تطوفان بسعادة فوق المنزل. ولم يزعجها إلا هذا التشابك في الشجيرات المهملة التي كانت تحتضن

شرفة المنزل والممر المؤدي إلى البيت في فوضى شديدة.

على الفور، وضعت دلو الطلاء جانباً واندفعت إلى غابة الأوراق. وعندما فرغت من عملها كانت يداها قد اقترنتا بلون أسود بفعل التراب العالق عليها فيما راحت عضلات ظهرها وذراعيها تصرخ مستغيثة طالبة النجدة، إلا أن نظرة يتيمة إلى واجهة المنزل أنستها ألمها وعذابها. كانت الشجيرات الغنية بعطرها كغريمة الجدي والغرانيا تزين مدخل البيت، مع مجموعات من زنابق الوادي العطرة حيث نُثِر فوق ترابها طبقة من النشارة والتبن لوقاية جذور النباتات الغضة. تراجعت مادلين القهقرى قليلاً، مرة أخرى، وهي تتنهد، وقد وضعت يدها على موضع الألم خلف ظهرها، ثم راحت تمسح يديها الملطختين بالتراب على جانبي سروالها.

الآن كل شيء أصبح رائعاً، فكرت مادلين ثم شعرت بقدميها ترتفعان عن الأرض فيما كان الياس يتكلم من خلفها فقال: «يا إلَهي يا مادي، في البدء كانت موسيقاي، ثم حديقة الورد والآن هذا... يبدو أن كل ما تلمسينه يعود إلى الحياة.»

أحست مادلين بقلبها يثب لبرهة ثم يعود إلى مكانه في صدرها. وفكرت بأسى، ما خلا أنت يا الياس، فلن أستطيع إعادتك إلى الحياة. فقط بيكي تستطيع ذلك.

تمتمت وهي تنظر نظرة عجلى أخرى إلى البيت: «إني أحب هذا المكان.»

ضحك ضحكة حزينة خافتة وقال: «أنت وأمي. كانت أمي تعتقد أن الشمس تشرق وتغيب لأجل هذه القطعة الصغيرة من

الأرض.» ونظر إليها فجأة، وقد اعتراه تجهم بسيط وقال: «ما الذي يجعلك تحبين هذا البيت حباً جماً يا مادي؟»

نظرت مادلين إلى تلك الأرض التي كانت تطأها الآن وشفتاها مطبقتان وقالت: «عندما كنت فتاة صغيرة، كنت أحلم في أن يكون لي بيت... بيت لا اضطر إلى مغادرته.» نظرت مجدداً إلى البيت وتنهدت بعمق ثم أردفت: «لقد كان يبدو صنواً لهذا البيت في شكله.»

التزم الياس الصمت للحظة، إلا أنها كانت تشعر بثقل نظراته عليها. وقال: «قلت إنك كنت تنتمين إلى عائلة رعاية...»

أجابت وهي تصحح كلماته بحركة آلية: «لقد قلت إنه كان لدي الكثير منها. فأنا لم أمكث في مكان واحد لفترة طويلة من الوقت.»

إستغرق في صمته، وكأنه يتخيل تلك الطفولة حيث لا استمرارية فيها لا في الأشخاص ولا في المكان.

جعلها الصمت تشعر بالتوتر. هذا يعني أنه يفكر في ما قالت؛ من المحتمل أنه يشفق عليها، وهي لم ترد ذلك. تحولت نحوه فجأة وقد تهللت أساريرها بابتسامة عريضة مشرقة وقالت: «لقد قلت لك لماذا أحببت البيت، ومن العدل أن تقول لي لماذا تكرهه.»

جمدت أساريره، وأخذت خضرة عينيه تغرق في اسوداد بسيط فيما كانت هي تراقب كل ذلك. أما ابتسامته فكانت واهنة، وقد اعتراها قليل من الألم وقال: «لقد كنت سعيداً هنا وأنا طفل أعيش مع والدتي، وخلت أني سوف أبقى سعيداً هنا، وكأن السعادة كانت مكاناً وليس حالة.»

توقف لبرهة وقد استدق فكه فيما ظنت مادلين أن حدقتيه قد تحولتا إلى حجرين أخضرين ثم تابع: «وهكذا، أحضرت زوجتي لتعيش هنا بعد زواجنا. فكرهت المكان وكرهت الانعزال والانفراد فيه وخلصت أخيراً إلى كرهي أنا لاحضارها إلى هنا. ثم وجدتها في السرير مع شخص كنت أحسبه صديقاً... في السرير عينه الذي تنامين فيه. وكان ذلك آخر يوم أطأ فيه أرض هذا المنزل... إلى أن جئتِ.»

أحست مادلين بألمه وكأنه يعمل في أحشائها، وكان هذا الشعور بالألم مألوفاً لديها. فقد كانت تعلم علم اليقين ما معنى أن يعطي الانسان قلبه لشخص ما ثم يكابد من جراء رفض الشخص الآخر. وقد شعرت بذلك عشرات المرات، في كل مرة كانت تغادر فيها بيتاً من بيوت الرعاية.

راحت تتأمل في خطوط صورته الجانبية القاسية وفي وضع فكه الدفاعي ورأت في وجهه صورة الطفل الذي عاند وكافح كثيراً ليكون شجاعاً وهو يدّعي بأن النبذ لا يؤلم ولا يقهر.

كانت الحاجة إلى الراحة ملحة وكأنها صارت ألماً يعمل في جسمها. فقد كانت ترغب في أن تدفع يديها إليه وتضغط بهما على وجنتيه لتلطف من ذاك الألم الذي شدهما إلى بعضهما بعضاً في رابطة وثيقة منذ اللحظة الأولى التي سمعت فيها رجع صدى يأسها في موسيقاه. وكانت تريد أن تقترب منه، إلا أن المسافة التي كانت تفصل بينها وبين أي كائن بشري كانت بعيدة. وارتجفت يدها إلى جانبها ثم سكنت وتمتمت: «أنا آسفة.»

أمسك الياس بكتفيها وأدارها برفق حتى صارت في مواجهته، وسألها وهو غير مصدق: «آسفة؟ بالله عليك يا مادي، ولم الأسف؟ انظري إلى ما فعلت. لقد جعلتني أراه على النحو الذي كان عليه حين كانت أمي لا تزال على قيد الحياة، حين كان هذا البيت يعمر بالحب. لقد جعلتني أدرك كم كنت أحمق في السماح لذكرى واحدة سيئة أن تحطم سنوات من أجمل أيام عمري في هذا البيت.» انحنى إلى الأمام ليطبع قبلة على جبينها قائلاً لها: «شكراً لك على كل ما فعلته، يا مادي.»

نكست رأسها وراحت تحدق في حذائها المبقع وغمغمت وقد اعتراها الارتباك: «كل ما فعلته هو طلاء المظلات.»

راح الياس يحدق بحنان في قمة رأسها المطأطىء. وعندما تكلم أخيراً كان صوته أشبه بالهمس: «ليس لديك فكرة في من تكونين، أليس كذلك؟»

رفعت مادلين عينيها بسرعة لتلتقي بعينيه وكادت أن تجفل لما رأته من عمق الإحساس فيهما.

كانت شفتاه تهتزان قليلاً كرفرفة جناحي فراشة، ثم اقترب منها رويداً وهو يبتسم لها. ولم يكن ذلك بالشيء المخيف. فهي لم تكن قبلة رجل لامرأة على كل حال بل قبلة ناعمة حنونة لأب، أو أخ، أو صديق قلبه عامر بالعرفان. وقد كان خلواً من الشهوة والرغبة، على الاطلاق. رفّت مادلين أهدابها بسرعة لتحبس الدموع في عينيها والتي ما تزال تحبسها طيلة حياتها.

سألها بهدوء: «من المفترض أن نكون صديقين، أليس كذلك؟»

أومأت مادلين برأسها غير قادرة على الكلام.

«وهل يستطيع صديقان أن يذهبا إلى العشاء سوية؟»

ارتعشت شفتاها مع بدء ابتسامة. أما هو فحدق إليها قائلاً: «سنحتفل بالموسيقى وبالبيت وبالصداقة.»

إستحمت مادلين ثم ارتدت فستانها الأزرق الفاتح وهو ما كان يلبس لمناسبات كهذه ولا تستطيع أن تسمح لنفسها بالتفكير في هذه المناسبة بأكثر من لقاء مع صديق.

مشطت شعرها بلامبالاة ظاهرة، جعلته يتكسر فوق كتفيها وراحت تنظر في انعكاس صورتها في المرآة وقد تجهمت أساريرها قليلاً. بدت عيناها مختلفتين، كأن مسحة من اللون الأخضر موجودة خلف اللون الرمادي البارد. وراحت تخاطب نفسها قائلة إذا كانت العيون حقيقة نوافذ الروح فعيناي تشعان بأشياء كثيرة. ثم عبست قليلاً لصورتها وتحولت سريعاً عن المرآة.

توقعت أن ترى الياس في آخر السلم. وعندما لم تجده هناك توقعت أن تراه في المطبخ، حيث كان يشعر بارتياح لدى الجلوس هناك، ولشد ما أدهشها حين رأته أخيراً وهو ينتظرها في الردهة الصغيرة وهو مرتاح في كرسي هزاز ورجلاه ممدودتان إلى الأعلى. «ها أنت اذاً.»

نظر إليها وابتسم قائلاً: «وهل تركت ورائي طريقاً من فتات الخبز؟»

قهقهت عالياً وأجفلت عند سماعها صوت قهقهتها. كم مضى عليها من الوقت وهي لم تستمع بعد لصوت ضحكتها؟

«لم أرك هنا أبداً قبل الآن، هذا كل شيء.»

رمق البيانو الكبير في الزاوية، وعيناه غافلتان للحظة ثم قال: «لقد تلقنت درسي الأول على البيانو في هذه الغرفة بالذات. كنت فظيعاً. وكانت أمي العازفة الوحيدة في العائلة.»

مشت مادلين إلى الجدار حيث عُلّقت مجموعة من الصور ونظرت إلى واحدة بالتحديد تحمل صورة ولد شقي يضحك ضحكة شيطانية وشعره الأسود يتدلى فوق جبينه. استدارت وسألته: «هل هذا أنت؟»

أومأ برأسه قائلاً: «الشخص الثاني هو أمي.»

إبتسمت صاحبة الصورة لمادلين وقد كانت امرأة شابة واقفة وسط حديقة الورد وقد أحاطت بها البراعم. وقال الياس عبر الغرفة: «إنها تشبهك قليلاً في هذه الصورة.»

«لا، فهي جميلة.»

«وأنت أيضاً، يا مادلين، ألا تعلمين بذلك؟»

كانت الغرفة غارقة في السكون حتى كادت أن تسمع خفقان قلبها.

تنهد وتنحنح: «إني جائع، وأنت؟»

تحولت إليه وهي تبتسم وراحت تتساءل إذا كان سيأتي اليوم الذي لن تشعر فيه نحوه بأي شيء لدى النظر إليه. فقد كان مرتدياً سروالاً داكن اللون، تفصيلته لا غبار عليها، وقميصاً أبيض كان يتمايل عليه مع كل حركة. كان الفرق بين شعره الأسود وبشرته الفاتحة أكثر نفوراً وكأنها نسخت لون بشرتها عنه أكثر مما نقلتها عن الشمس. وقال: «إني جاهز.» أومأت برأسها وهي تمشي لتأخذ بيده الممدودة.

شعرت بالراحة وهي تمشي عبر البيت وهما يداً في يد. وعضت على شفتها السفلى فيما هما يخرجان من البيت باتجاه السيارة. وكانت تعلم ماذا يحدث حين تبدو الأشياء رائعة على هذا النحو.

إنها سرعان ما تتلاشى.

www.Rewity.com

الفصل الثالث عشر

تناولا، مادلين والياس، العشاء في مطعم إيطالي صغير مكتظ بالزبائن وبمنأى عن أعين المارة، في أحد شوارع القرية الخلفية. وقال لها الياس إن إسم المطعم ليس وارداً في الدليل إلا أن المسافرين كثيراً ما يعثرون عليه. وأضاف: «أعتقد أنه سيعجبك.»

كما سائر المطاعم الإيطالية في المنطقة، فقد كان هذا المطعم بسيطاً في خدمته واحتفائه بالزبائن. فلا شمعدانات موضوعة في قناني الشيانتي، ولا شراشف طاولة حمراء اللون ولا جدران مزخرفة حتى الإزعاج ولا ألحان كمان مشدودة. كان داخل المكان متقشفاً في بساطته. فالفرش كان كناية عن طاولات خشبية مع كراسيها موزعة هنا وهناك، أما لونها فكان داكناً والأضواء خافتة.

قادها الياس عبر شلة من الساهرين، كانوا يتناولون عشاءهم، إلى طاولة شاغرة قرب المطبخ وقال: «المكان هنا أكثر هدوءاً.»

راحت مادلين تتنشق رائحة الثوم والبهارات الطازجة التي تسيل اللعاب وقالت: «إني أتنشق رائحة الطعام.» فلم يكن منه إلا أن كافأها بأحدى ابتساماته النادرة.

لم تمض دقائق خمس حتى حضر عمال المطبخ... كلهم على ما يبدو أعضاء في العائلة نفسها... إلى طاولة الياس للترحيب به، وكأنه ابن أو أخ ضلّ منذ زمن بعيد. ولشدة ما

دهشت مادلين حين رأت هذا الرجل الرصين المتحفظ في عواطفه قد صار هدفاً لعواطفهم. وما أثار دهشتها أكثر أن ولعهم الواضح بالزائر، اتسعت دائرته لتشملها هي كونها رفيقته. جلست إلى الطاولة بعد أن أصبحا بمفردهما وقد احمرت وجنتاها فيما راح الساهرون يرمقونها بنظراتهم ويوسعونها تقبيلاً وعناقاً.

قال الياس بارتباك ظاهر وقد لاحظ انزعاجها: «إني آسف لما حصل، فالسكربيلو هم كالعائلة وهم في غاية... الود.»

حاولت مادلين أن تبتسم وهي تتنكر ذاك الرجل الضخم الجثة بضحكته العريضة المشعة وهو يبتسم لها قائلاً: «إني أصادق على كلام الياس. فالعائلة ليست إيطالية، لسوء الحظ، إلا أني أوافق على كلام الياس.»

«إنهم رائعون.» تمتمت وهي لا تزال تنعم بهذا الإطراء المستفيض في مضمونه مع أنها لم تكن تدري كيف ترد عليه شاكرة. ركز الياس عينيه الخضراوين على عينيها بشيء من الدهشة عندما تكلمت بلغة إيطالية متكسرة وهي تنهي دورة من المعانقات الفرحة الصاخبة من السكربيلو.

«لم أكن أدري أنك تتكلمين الإيطالية.»

صححت قائلة: «إني أتكلم الإيطالية المتعلقة بالأكل، هذا كل شيء.»

أحضر جورجيو، ذاك الرجل الضخم والذي حاز على إعجابها بعد اطرائه المفرط لها، زقاً من الشراب ذي اللون الأحمر القاني إلى الطاولة وقدمه لها باحترام زائد قائلاً: «إنها من مخزوني الخاص، كان يجب أن تعلمني بمجيئك،

www.Rewity.com

يا الياس لأفتحها قبل وصولك.» وابتسم ابتسامة خفيفة وهو ينظر إلى مادلين ثم قدم لها كأساً منه لم يملأ حتى الأعلى وقال في نبرة آمرة: «إشربي، فكل الليالي العظيمة تبدأ مع الشراب.»

احمرت وجنتاها بذاك اللون الأحمر القاني. وعرّف الياس عنها قائلاً: «إنها عازفتي يا جورجيو، وليست عشيقتي.»

قال جورجيو وهو يبتعد، ساعياً لتلبية رغبات الزبائن الآخرين: «إنها مسألة وقت.»

راح الياس ومادلين وبانزعاج متساوٍ يتظاهران بالتحديق بما يحيط بهما، ثم التقت عيونهما وكأنهما طائران مذعوران وقد اندهش الأول لرؤية الثاني. وضع الياس حداً لهذا الإرتباك القائم بابتسامة وتنهيدة لا رجاء منها وقال: «لا سبيل لإصلاحه فهو رومانسي عنيد.»

ابتسمت مادلين وقد ارتخت عضلات كتفها وقالت: «هل هو دائماً هكذا؟»

هز الياس كتفه قائلاً: «لم أحضر إلى هنا قبلاً برفقة امرأة.»

رشفت مادلين من كأسها وهي تتساءل لِمَ لم يحضر هو وبيكي إلى هذا المطعم قبلاً؟

عندما راحت تنظر في عينيه مجدداً، كان يبتسم لها، بقليل من الحزن، هكذا ظنت. كان ضوء الشمعدان يلمع في عينيه كبقع صفراء من الحرارة تتوسط أحد الانفراجات في غابة خضراء باردة.

«نحن لا نتكلم إلا في الموسيقى. وعندما انصت إليك أحياناً وأنت تعزفين مما أضعه من تأليف، أخال أنك تعلمين عني أكثر من أي شخص آخر في هذا العالم...»

إرتفع حاجباها فيما تابع الياس قائلاً: «... إلا أني لا أعرف شيئاً عنك، لم أكن أعرف أنه لم يكن لديك عائلة حتى هذا الصباح.»

إهتز كتفاها بحركة متوترة وقالت: «ليس هذا بالشيء الذي تذكره بشكل عابر.»

بدت عيناه لينتين قليلاً ومتطفلتين بعض الشيء وقال: «قلت إنه كان عندك الكثير من البيوت...»

«نعم.»

«وهل مازلت تتصلين بالعائلات هذه؟ هل أنت قريبة منهم؟»

أشرقت ابتسامتها على الفور غير أنها كانت باردة ومتكلفة، وقالت: «في الواقع، لم أقم أبداً في بيت واحد لمدة طويلة حتى تتسنى لي الفرصة لأن أقيم علاقات حميمة معهم.» بدا الياس مصعوقاً فيما أضافت مادلين مدافعة: «لا تنظر إليّ هكذا. لا تشعر بالأسف عليّ. لدي حياة حلوة الآن.»

قال بلطف ظاهر: «لا أشعر بالأسف لما أنت عليه الآن يا مادي. لكنني أشعر بالأسف لطفولتك... لهذه الطفلة التي ما تزال في أعماقك. طفلة تقع في غرام بيوت لأنها تخشى أن تقع في غرام أشخاص.»

أمسكت مادلين عن التنفس، وأخفضت نظرها، فيما أخذت أهدابها ترف بسرعة، إنه يعلم كثيراً. ورأى الكثير.

www.Rewity.com

قالت في سرها. ثم ردت بحدة غاضبة: «أنت من يجب أن يتكلم. لقد كنت تكره البيوت للسبب نفسه.»

فاجأها عندما ضحك ضحكة خفيفة ونظرت اليه لتجده يبتسم لها ثانية، ثم قال: «ربما هذه هي مشكلتنا، يا مادي. ربما لأننا قريبان من بعضنا، ونشبه بعضنا في نواح كثيرة.» اسودت عيناه فجأة وخفض بصره وقال: «قولي لي كيف تجري الأمور بينك وبين دافيد؟»

دهشت مادلين لهذا التحول المفاجىء في موضوع المحادثة وهتفت قائلة: «دافيد، لم أحدثه منذ أن كان هنا في ذاك الصباح بعد...»

تحول برأسه وهو يكشر قائلاً:

«... بعد هذا الصباح الذي تصرفت فيه بغباء.» أنهى عبارته هذه بغمغمة ظاهرة. ثم تابع قائلاً: «إني مندهش من أنك ما زلت تتحدثين إليّ بعد تلك الأشياء السخيفة التي قلتها لك تلك الليلة في غرفة دافيد. فليس عندي عذر لتصرفي هذا، ما عدا ذلك...» عضّ على شفتيه وقد اختصر جملته قائلاً: «مهما كانت علاقتك مع دافيد، فليس هذا من شأني.»

أجابت: «لست على علاقة مع دافيد.»

حملق بها بصمت لبرهة، وقد جمدت قسمات وجهه وقال بهدوء: «لقد تكلمنا، أنا وهو، ونحن في طريقنا إلى منزل بيكي. أعتقد أنه واقع في غرامك.»

ابتسمت فجأة وبطريقة مثيرة للمشاعر وقالت: «دافيد من النوع الذي يحب جميع الناس. وهذه الأشياء هي كالتنفس بالنسبة له.»

أجابها قائلاً: «ربما. إلا أن هذا يبدو مختلفاً، حتى أني أكاد أراه.»

أصلحت مادلين من جلستها. ففكرة أن يقع في غرامها شخص ما كانت غريبة عليها وسخيفة، حتى أنها كادت أن ترتبك وهي تسمعها جهاراً وسألته فيما ارتفع حاجباها: «هل تمانع في أن نتوقف عن هذا الحديث؟»

أجاب وقد بدا صوته بارداً فجأة: «بالطبع، فأنا لم أقصد أن أتدخل.»

وأتى على محتوى كأسه برشفة واحدة. ثم ملأ الكأسين معاً.

مر العشاء بصمت نسبي، والسبب في ذلك أن مجرد ذكر دافيد قد أقام حاجزاً غير مرئي بينهما، والسبب الثاني كان يكمن في أن جورجيو كان كثير الحضور إليهما حتى أنه لم يكن لديهما متسع من الوقت ليختليا مع بعضهما بعضاً. وقال جورجيو لهما فيما كانا يغادران: «تعالا مجدداً.» وقبّلها على وجنتيها قائلاً: «إننا أصبحنا عائلة واحدة الآن.»

في طريق العودة إلى روزوود جلست مادلين جانبياً في مقعدها في السيارة كي تستطيع رؤية الياس وهي تحرك عينيها فقط.

إنه على حق، بالطبع. ففي داخلها، ما تزال تلك الفتاة الصغيرة التي تبحث يائسة عن عائلة، وقد أعطاها جورجيو، ولهذه الليلة على الأقل، الوهم بأنه صار لها واحدة. فهذا الشعور بالإنتماء كان قد أحاط بها مثل دثار دافىء ومريح وقد أخذ يشعرها بالأمان.

www.liilas.com

قال لها: «إنك تبتسمين؟»

شعرت بنظرته قبل أن يعيد نظره إلى الطريق المظلمة أمامه وقالت: «أتعتقد ذلك؟»

«نعم. وهل يؤثر الأكل الإيطالي فيكِ هكذا؟»

قالت وهي تشعر بابتسامتها تتسع: «فقط عند جورجيو.»

«إذاً، فسنذهب إليه مراراً.»

إلا أن مادلين لم تأبه لجوابه هذا إذ كان على غرار ما يقوله الناس في محطات كلامهم وقد كانت تلك الكلمات بالنسبة لها مجرد وعود للمستقبل. وإذا لم يكن قد عنى ما عناه من وراء تلك الكلمات فقد تخيلت أنه فعل ذلك فعلاً. وقد ادعت لنفسها أشياء كثيرة مؤخراً... كتخيلها بأن المدينة قد صارت ملكها عندما كانت تشتري الطلاء، وأن جورجيو قد عنى ما عناه حين قال إنها من العائلة... ولماذا لا تتخيل أنها تستطيع أن تحصل على الياس إلى الأبد؟

استدارت في مقعدها وراحت تحملق فيه وقد ارتسمت على شفتيها إمارات ابتسامة خفية. لماذا كانت خائفة من أن تفعل ذلك قبل اليوم؟ لماذا تركت كبرياءها تمنعها من تذكر قسمات رجل أحبته، تلك الذكرى التي كانت لتدوم طويلاً إلى ما وراء الحدود الضيقة المختصرة لعلاقتهما؟ سألها: «ما الخطب؟»

فأجابت وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة: «لا شيء.»

أرخى حاجبيه على شكل محير فوثب قلبها وطوال رحلة العودة إلى روزوود... إلى «البيت» على الأقل هذه الليلة... راحت مادلين تراقب تنهداته، وحركات أنامله الطويلة على المقود، وكل تلك الظلال التي كانت تمر على صورته

الجانبية القاسية والمشدودة. وكانت فكرة السماح لنفسها بأن تقدم على شيء كهذا تكاد تخنقها.

كانهما أتيا على نهاية الموعد الأول، فقد فتح الياس الباب وأشار إليها بالدخول وهو يرتبك على العتبة قائلاً: «هل أستطيع أن أدخل لبرهة؟» كانت ابتسامتها سريعة ومشرقة وقالت: «بالطبع، فهو منزلك.»

هز برأسه قائلاً: «لا. وعدتك بأنه سيكون بيتك طالما أنت باقية هنا.»

وردت بلطف إذ أن ذلك كان جزءاً مما كانت تتخيله: «حسناً، إذن إنه بيتنا.»

لم تكد تدخل عتبة البيت حتى راحت تفرك ذراعيها وهي تواجه برد المساء.

سألها الياس قائلاً: «الجو بارد، أليس كذلك؟»

«قليلاً.»

«إنها الرطوبة. يلزم لهذا البيت بعض الوقت كي يجف بعد المطر.»

استدارت نحوه فجأة وفي عينيها حدس طفولي: «وهل النار تساعد؟»

قوس حاجبيه متعجباً وتلطف وجهه في ابتسامة رعناء وقال: «لم أجلس مقابل المدفأة لسنوات.»

«أما أنا فلم أجلس مقابل مدفأة، قط.»

تعلقت عيناه بعينيها ومن دون سابق انذار مد يده وراح يتلمس برفق خدها بظهر يده. وقال بلطافة: «هذه الليلة سوف تجلسين.»

راحت مادلين تراقبه بتعجب صامت، وهي جالسة على

الكرسي الهزاز الذي كان يجلس الياس عليه قبل الآن، وهو يضع الحطب في المدفأة. وكان مشغولاً في وضع قطع الأشجار فيها وكأنه لم يعد يدرك نظراتها. وضاقت عيناها الرماديتان فيما راحت ألسنة اللهب تلتهم عيدان الحطب وتنير خلفيته. بانت قسمات جسده تحت قميصة وبفعل خدع اللهب المتراقص، بدا جسده يلمع بلون ذهبي تحت القماش الأبيض الناصع.

جلست مادلين مصعوقة وهي تتذكر الخطوط المتماوجة لكتفيه اللتين لم يقع عليهما نظرها قبل اليوم. وأمسكت عن التنفس وهي تظن أنها تراه عارياً وتتساءل لماذا لم تجفل وهي تنظر إليه بوقاحة؟

فاجأها حين وقف فجأة ومسح يديه على بنطاله ثم استدار ليواجهها. وبدا كإله يوناني وهو واقف في الظلال والنار تتكسر من حوله، ووجدت أنها لا تستطيع تجنب نظراته.

لم تستطع تمييز قسماته فيما النور خلفه. لكن عندما قال: «نريد بعض الشراب.» كان كأنه روح مخلوعة عن جسدها تتكلم وليس انساناً من لحم ودم.

تنهدت بعمق عندما غادر الغرفة ووقفت وهي تحاول أن تستعيد هدوءها. وراحت تأمر رجليها بأن تتحركا وقد بدتا واهنتين بغرابة وهي تظن أن مجرد سيرها قد يعيدها إلى الأرض. ومشت مرتين قرب النار التي كانت تزأر وقبل أن تشعر بالنار تدغدغ عضلات ساقيها تحت حاشية فستانها. وتوقفت فجأة وهي تواجه النار وقد أدهشها ذلك الشعور الذي كان ينتابها. تقوست شفتاها قليلاً وقد ملكت نفسها

الدهشة. ومن دون وعي لما تفعل جثت على ركبتيها وشعرت بالدفء والنور يغمران وجهها.

بعد وقت، شعرت بحضوره فالتفتت لتراه واقفاً عند عتبة الباب يحملق بتعجب صامت، ويداه مرتخيتان على جانبيه وفي إحدى يديه زجاجة الشراب وفي يده الأخرى كأسان.

راحت تخاطب نفسها قائلة إنه يجب أن تقول شيئاً ما. وأخذت تملأ عينيها بتاج رأسه الأشعث وخطوط جسمه النحيلة القاسية، ولكن منظره جعلها بكماء، كانت عاجزة عن القيام بأي شيء سوى أن تحملق به، فيما شفتاها منفرجتان في شبه دائرة مبللة.

قال وهو شارد فيما كان صوته يتماوج في حنايا جسمها: «لقد أحضرت الشراب.»

أوقفت التنفس فيما كان يتحرك ببطء نحوها وعيناه معلقتان عليها. وشعرت بشيء كبير قادم صوبها لن تستطع مقاومته إذا سمحت له أن يقترب أكثر. فقد كانت البارحة على أهبة أن تثب على قدميها وتطير، أما الليلة فلا. فقد كانت تعيش حلماً. وفي الأحلام لا مستقبل ولا خوف مما سيحدث، وإنما اللحظة التي هي فيها.

وقف قربها ونظرت مادلين إليه وهي متعجبة من تلك الاحساسات التي كانت تنتابها من كونها امرأة مظللة برجل. وكان موقفاً خانعاً، الركوع أمام قدمي رجل مثل ذلك. ولكن بدلاً من ذلك كان هناك شعور غريب من أن كل شيء كان سيجد مكانه وكان ذلك ما ينبغي لها أن تفعله. نظر إليها وانعكاس اللهب الأصفر يلمع في خضرة عينيه ثم ركع على ركبتيه وهو يواجهها ووضع الشراب والقدحين جانباً.

www.liilas.com

أخذ يديها بلطف وحنان وأدارها نحوه حتى تلاصقت ركبتاهما.

كانت غير واعية لديه وهما تغادران يديها، وقد حان الوقت لذلك لأن أنامله كانت تفتح طريقها عبر شفافية شعرها الفضي وهي ترفعه بعيداً عن عنقها وارتعشت ليديه وهما تلامسان الشعر في أعلى عنقها وأغمضت عينيها وهمست قائلة: «الياس!» وكانت هذه العبارة، سؤالاً مفاجئاً.

تمتم بصوت أجش قائلاً: «قوليها مرة ثانية، يا مادي، قولي إسمي.» وفتحت عينيها على وسعهما لما سمعته من صوته.

هفا قلبها في صدرها وهي تتذكر تلك الخرافة القديمة التي تقول بأنها إذا تفوهت باسم أحدهم فسوف تقبض على روحه أو يقبض على روحها. هزت برأسها من دون أن تنبس ببنت شفة وقد شعرت فجأة بالخوف فقال لها وكان قد لاحظ ما كانت تشعر به: «لا تفكري به يا مادي. لا تفكري بالغد وماذا سيحدث، أو ما سيجلب لنا الغد. فكري بما سنكون عليه في هذه اللحظة.»

أخذت يديها بيديه وأمسكتا بهما بقداسة كما كان قد أمسك بيديها في تلك الليلة الأولى. تلك الأيدي الجميلة التي كانت تحمل الشعر من عقله إلى موسيقاه على لوحة المفاتيح. وهمست باسمة إذ كان ذلك ما كان يريد سماعه: «الياس.» ورددت مراراً وتكراراً: «الياس، الياس...»

«مادي.» تمتم باسمها بصوت أجش ويداه ترتجفان على أعلى ذراعيها.

طافت عيناه فوق وجهها تتلمسان وكأنهما تأخذان ملكيتهما منها ولم يحرك ساكناً أو ينبس ببنت شفة للحظة ولكنه كان يريدها أن ترى ما يمكن أن يكون صدى لكلماته.

وراح يهمس باسمها وهو يلامسها فيما قلبها يخفق بعنف وجسمها يرتخي.

www.Rewity.com

الفصل الرابع عشر

استيقظت مادلين وهي تشعر بلمسة لطيفة على خدها صعوداً حتى حاجبها.

وناداها صوت أشبه بالهمس فانقلبت على جنبها وقطبت حاجبيها وهي تريد أن تغرق مجدداً في ذلك الحلم حيث كانت هي والياس مستلقيين قرب النار.

فتحت عينيها على وسعهما ووجدت نفسها تحدق في رماد الموقد. وراحت تستعيد احساساتها رويداً رويداً. وأحست بالبرد فأدركت للحال أنها نامت من دون غطاء.

رأته من خلال النور الشحيح الوافد من النافذة. حاثياً على ركبتيه قربها وهو لا يزال في ثياب الأمس التي باتت جعدة ومتغضنة، فيما كان قميصه مفتوحاً على صدره وقال: «إنه الصباح، يا مادي.»

راحت تفتش عبثاً حولها عما تغطي به نفسها لتحتمي به من البرد. ولم تكن تحلم قط بأنها ستنهض من فراشها على هذا النحو بعد أول ليلة أمضياها معاً. فقد كان من المفترض أن يحضنها بين يديه وهما يتمتمان بأشياء غير ذات بال، كان العاشقان يتبادلانها في الصباح.

أصلحت من جلستها وطوقت جسمها بيديها وراحت تفرك ذراعيها بشدة وقد بدأت القشعريرة تسري فيهما.

تناول الياس بطانية من على كرسي مجاور ولفها حول

كتفيها في حركة عادية سريعة لم تكن تحتاج إلى مناشدة منها.

ابتسم وهو يربت عليها بلطف تحت ذقنها وكأنها طفل يسعى ذوو أمره إلى اخراجه من السرير بشتى وسائل التدليل الخداعة. ثم قال: «علينا أن نسرع، يا مادي. علينا أن نغادر في وقت قريب لنصل في الوقت المناسب إلى المدينة.»

تحولت عيناها الرماديتان إلى لون أسود فاحم ومدت أحد أناملها لتلمس به زاوية فمه. واحمرت غاضبة وهي تتذكر ما فعله بها ذلك الفم في الليلة الماضية. وابتسمت فيما راحت عيناها تطوفان في وجهه الذي لم يكن حليقاً، وبدأت ظواهر لحية تتكون حول فكيه فيما كان شعره الأسود يتدلى فوق حاجبيه.

مضى يزيح خصلات شعرها الطويلة الفاتحة عن وجهها وارتعشت وهو يلمسها بينما انزلقت البطانية عن كتفيها لتستقر على وسطها. وأخذت بيده وهي متعجبة من جرأتها هذه وضغطت بها على صدرها.

همس بين أسنانه بصوت أشبه بالفحيح قائلاً: «يا إلهي، يا مادي.» وضاقت حدقتاه وقد اصطبغتا بلون أشد سواداً. وتصلبت عضلات وجهه وبرزت خطوط متغضنة بين حاجبيه. وهمس بصوت أجش قائلاً: «لا نستطيع أن نفعل ذلك، علينا أن نسرع.» ارتسمت على ثغره ملامح ابتسامة خفيفة متكلفة. ثم وقف ونظر إليها قائلاً: «ستأتي بيكي إلى هنا في أية لحظة. ولا نريد أن تقف على ما نحن فيه، أليس كذلك؟»

كانت ابتسامتها مرتبكة وكأن الأرض قد غارت تحتها، فيما بدأت أحلام الأمس بالتلاشي وحلت محلها معالم الواقع المرير. ففي الأمس لم يكن هناك موسيقى ولا ماض ولا مستقبل، ولا حتى بيكي، وها قد انتهت تلك الليلة. وشعرت ببرد شديد يلفحها وكأنه بات دخيلاً على جو الغرفة الدافىء. وحاولت أن تقف وهي لا تزال تتشبث بالبطانية.

راحت تنظر إلى وجهه الجميل في تقسيماته وتكاوينه فيما كانت عيناه الخضراوان تنعمان في براءة هانئة لا مثيل لها. وكأنه لم يكن قد خدع امرأة فيما مضى وهو على مشارف أن يستغل الثانية. فقد كان من المستحيل أن يكون ذلك الفكر المختبىء وراء هذا الوجه، ذلك الفكر الذي هو وراء هذه الموسيقى الجميلة قادراً على الخداع. إلا أنه ومع الأسف، قام بكل ذلك. وكانت مادلين شريكته.

حاولت بكل ما أوتيت من قوة الإرادة أن تكرهه، ومع ذلك كان بمقدوره أن يدخل قلبها ويقلبه بيديه، وخلصت إلى كره ذاتها إذ كانت عاجزة عن كرهه.

لم تكد يده تلمس كتفها حتى تراجعت متعثرة إلى الوراء ووجهها ملتوٍ وهي تجاهد في حبس دموعها.

ذهل الياس، فحاول أن يمد يده إليها مجدداً ولم يلبث أن تراجع مذعوراً لدى صراخها به قائلة: «لا! لا تلمسني!»

جمد في مكانه وهمس قائلاً: «يا إلهي يا مادي، ما الخطب؟»

عضت على شفتها وبلعت بريقها لتخنق التشنج في حلقها. ثم قالت: «ما كان يجب أن يحدث ما حدث في ليلة البارحة... لم يكن معك حق...» انخفض صوتها وتهدم الـ

الذي كان يكبح عواطفها فأرخت العنان لفيض من دموعها.

قال الياس وقد جمدت تعابيره في شبه صدمة: «أنا آسف، يا مادي. لقد خلت أنك تريدين ذلك أيضاً... لم أقصد إيلامك...» حاولت عيناه أن تخرقا وجهها وكأنهما لا تصدقان ما كانتا تشاهدانه خلال تجربة الألم، وهمس قائلاً وشفتاه ما تكادان أن ترتعشا: «يا إلهي!» وراح يرنو إلى أسفل وهو يمد يده إلى حاجبه المتغضن. وعندما نظر مجدداً إلى أعلى كانت عيناه قد فرغتا من كل المشاعر والأحاسيس.

ومن دون أن ينبس ببنت شفة استدار وانصرف.

بقيت مادلين تحت رذاذ الماء الدافىء أطول مدة ممكنة وهي تحاول أن تتخلص من فائض الدمع والأحاسيس التي انهمرت بقوة... تلك الأحاسيس التي كانت تهدد بالسيطرة عليها.

أنشأت تخاطب نفسها، إنها تستطيع مواجهة كل ذلك، فيما كانت تفرك بشرتها حتى تحولت حمراء وقد ظنت أنها بفعلتها هذه قد تخفف من وجعها الذي كان يعصرها في الداخل.

كانت فكرة مرافقة الياس وبيكي في السيارة نفسها قد أرعبتها إلا أنه لم يكن هناك متسع من الوقت لاتخاذ تدابير أو اجراءات جديدة.

جففت جسدها بسرعة ومشطت شعرها المبلل ثم ارتدت فستانها الذي كان يصل إلى أخمص قدميها والذي كانت ترتديه في حفلات تلامذتها. رمقت صورتها المنعكسة في

www.Rewity.com

المرآة بلا مبالاة فيما وضعت قليلاً من المساحيق على وجهها. وتذكرت أن ذلك الفستان العالي عند الرقبة كان يجعلها تبدو وكأنها في حداد، إلا أن ارتداءه في ذلك اليوم كان ملائماً.

كانت الرحلة إلى المدينة أشبه بكابوس كما توقعت. فقد جلست في المقعد الخلفي بناء على الحاحها وهي تتظاهر بالنوم فيما راحت بيكي تحدث الياس في مواضيع شتى ابتداء بالهراء القائم في البلدة وانتقالاً إلى المواهب الموسيقية لأحد الشبان من معارفهما.

كان الياس في مستهل الرحلة غاضباً وغارقاً في صمته غير أن أحاديث بيكي جعلته أكثر ارتياحاً. وعندما وصلوا إلى المدينة، شعرت مادلين بصداع لكثرة ما أغمضت عينيها في محاولة منها لمنع الأصوات القادمة إليها من المقعد الأمامي.

أوقف الياس سيارته في احد المواقف وقد أضاء أرجاءه نور خافت وهتف: «ها قد وصلنا.» وأوقف محرك السيارة والتفت إلى الوراء لينظر إلى مادلين قائلاً: «هل لا تزالين مستيقظة؟»

قالت وهي تتصنّع التثاؤب: «تقريباً.» إلا أن سرعان ما اقترن تصنعها هذا بالحقيقة. فتثاءبت فعلاً.

«إذاً، هيّا بنا.»

راحت مادلين تمشي وراءهما متباطئة، وهي تلاحظ مرغمة، الطريقة التي كان فيها الياس ينظر إلى بيكي. ومن يا ترى يستطيع أن يلومه؟ فقد كانت أكثر جمالاً اليوم بفستانها الأسود المتناغم مع تكاوين جسمها. وكانت

عيناها، بما وضعت عليهما من الصباغات في غاية الروعة والفتنة، فيما كان شعرها الأسود يتساقط حول كتفيها كالشلال الهادر، بألوانه السحرية في كل مرة كانت تفتل برأسها.

سيتم تصوير غلاف الأسطوانة في بهو المسرح حيث عزفت مادلين موسيقى الياس لأول مرة. وكان ذلك إحدى مصادفات القدر وسخريته. عندما اقتربوا من المسرح تراجع الياس وبيكي إلى الوراء، وكانت مادلين هي أول من ارتد من المشهد الفوضوي الذي غمر المسرح. حتى البيانو الضخم بدا ضائعاً وسط الأضواء وعدسات التصوير والصراخ والضجيج.

تقدم شخص نحوها فجأة ويداه ممدودتان وكادت مادلين أن تبكي وهي ترى تلك الابتسامة الوضاءة المألوفة التي تبعث فيها الارتياح.

حياها دافيد هاتفاً: «يا ملاكي!» فيما كانت ما تزال مندهشة وهي تحاول أن تبتسم ابتسامة لا لبس فيها ولا غموض.

راحت تحاكي نفسها، انظري إليه. فهل كان من الصعب أن تقع في حب هذا الشخص الفريد من نوعه بخصلات شعره السوداء وبريق عينيه المرح الذي كان يدخل في نفسها الراحة والأمان؟ وعلى كل حال فقد قال الياس إن دافيد يحبها. بالتأكيد قد تتعلم، مع الوقت، أن تبادله الشعور نفسه... لكنها نظرت إلى الياس وإلى خطوط صورته الجانبية القاسية وأدركت أنها لن تستطيع الوقوع في حب شخص آخر... طالما الياس شيبرد موجوداً في العالم نفسه.

«أهلاً، يا دافيد.» ردت على التحية بود صادق وابتسمت له ممتنة لمشاعره الصادقة نحوها ولكن ابتسامتها تلاشت حين راح يضمها إلى صدره، إذ كان عناقه مختلفاً عن ذلك الذي حضنها به في روزوود. فقد كان قاسياً وخالياً من المشاعر وكأنه هو أيضاً كان يبتعد عنها. وفي اللحظة التالية أدركت سبب ذلك.

«دافيد؟» أتاها صوت بيكي وهي واقفة وراءها فيما راحت مادلين تراقب وجه دافيد وهو ينظر من وراء كتفها. وبدا وكأن بريق عينيه الكستنائيتين يذوب في ذلك الشعور الذي لا يخطيء والذي هو شعور الحب، وأصبحت ابتسامته أكثر نعومة.

أخذت مادلين تشاهد في اندهاش فيما هو يتقدم ليمسك بيكي ويشدها نحوه في عناق بعيد عن كل تجرد. فقد رأت ذلك في عينيه من قبل، وهي الآن ترى لمسة يده الناعمة موضوعة على خد بيكي.

شعرت مادلين بنيران الكراهية تتأجج في داخلها وحاولت أن تكبح شعورها في الاعتراض على هذه الحياة غير العادلة في ميزانها. أما بالنسبة لبيكي فقد كان الأمر سهلاً... إذ أنها لا تدّعي حب الشخص الذي أحبته مادلين فحسب، بل حب ذلك الشخص الوحيد الذي أحب مادلين.

وقفت وهي غير مصدقة ما تراه، في حين كان دافيد يقود بيكي والياس إلى المسرح أمام الكاميرا ثم هرول ليقف في الجهة الأخرى. ولم يكن للوقت قيمة بالنسبة لمادلين فيما كان المصور يلقي تعليماته ويضبط الأنوار على المسرح ويأخذ صورة بعد صورة لبيكي والياس الجالس خلفها.

رأت كل ما كان يجري على المسرح ولكنها كانت تراه من خلال حجاب؛ وهي تنتقل إلى مكان ناء حيث لا ينال منها الألم. وعادت إلى وعيها حين صرخ المصور بغضب ظاهر قائلاً: «لتعزف هذه الفتاة الموسيقى، قد يضعهما ذلك في الجو. ثم نجرب مرة ثانية.»

تنهدت مادلين وتحركت ببطء عبر المسرح لتتسنم مقعدها إلى البيانو. وراحت تحملق إلى أسفل وعيناها فارغتان من كل تعبير وكأنها لم تر من قبل لوحة مفاتيح.

تناهى إليها صوت الياس من الوراء قائلاً: «اعزفي لحن الحب يا مادي.» فقد كان هذا عنوان أغنية الفيلم. وارتفعت يداها بحركة آلية وهي تتساءل إذا كان عليها أن تطيع هذا الصوت دائماً، مهما كان طلبه، ثم انحدرت يدها اليسرى إلى المفاتيح وراحت تصدر ألحاناً وكأنها تنادي من أعماق روح رجل معذب. وخبت جميع الأصوات في البهو.

كان الجزء الأول من المقدمة حزيناً قاتماً يعكس يأسها... تماماً كالنمط الموسيقي الذي قرّبها من مؤلفات الياس في البداية، مع فارق وحيد. فعلى خلاف الموسيقى المملة الكئيبة التي هاجمها النقاد بقسوة، في هذه المقطوعة شيء مختلف... طبقة عالية راقصة تزداد ثلاثة أضعاف وتصدر بهدوء وبرشاقة عن الأوتار كالوعود المشرقة للربيع بعد عاصفة شتاء قاسٍ.

انحنت مادلين على البيانو وهي تتنقل على أجنحة الموسيقى وشعرها الباهت الطويل يلمع كحبيبات بلور تحت الأضواء اللامعة.

كان انخطافها عظيماً حتى أنها لم تلاحظ كيف كان

الناس في البهو مأخوذين بروعة الأداء وقد أمسكوا عن التنفس وكأنهم ينتظرون حدوث شيء ما... ولم تتعجب لتلك اليد التي امتدت فجأة لتضغط برفق على كتفها. وراحت الموسيقى تصدح عالياً وفي شبه رقصة مليئة بالأهازيج، وعرفت أنها يد الياس. وشعرت مرة أخرى بفيض روحه وهي تنساب من يده عبر جسمها وصولاً إلى لوحة المفاتيح وكأنها صارت آلته كما كان البيانو آلتها.

كان الشعور عميقاً حتى أنها أحست بقشعريرة تنتابها. بيد أنها علمت أن شعورها هذا لن يطول أكثر من فترة الأداء هذه.

كان يسيراً عليها أن تغمض عينيها وتترك لقلبها أن يرتفع مهللاً بأصوات الفرح التي كانت أناملها تؤديها. كما كان الادعاء بأن الأنامل التي كانت على كتفها تضغط بقوة في لحمها وكأنه كان يعيرها بعضاً من قوته وهو يقرن روحه بروحها ويأخذهما إلى أعلى، إلى حيث لم يحلقا قبل الآن.

خلف عينيها المغمضتين رأت النجوم تضيء مثل شهب تلمع كالأسهم النارية في السماء المظلمة ويداها وقلبها والموسيقى ترتفع لتحية هذه النجوم. وفي مكان ما خلف الأغنية وعلى مسافة بعيدة، سمعت أحداً يصرخ: «هذه هي! هذا رائع! لا تتوقفي!» لكن الصوت بدا كأنه جزء من حلم انتهى عندما لامست أناملها آخر وتر بانتصار.

ثم حل صمت مطبق.

راحت تسمع تمتمات خفيضة وهي تمزق الصمت القائم وترتفع نبرتها تدريجياً وكأن كل واحد حولها كان يصرخ

أو يهتف بهوس ـ ما عدا الياس، فقد كان ما يزال واقفاً خلفها. استطاعت أن تشعر بحضوره كما تشعر بدفء الشمس على ظهرها، ولكنه لم ينبس ببنت شفة.

أنصتت إلى صوت وقع أقدام تنقر خشبات المسرح ورأت المصور يسرع باتجاههما، وبيكي ودافيد وبضعة آخرين كانوا يواكبونهم. وكانت وجوههم غريبة في إماراتها وكأنها متحيرة بين الضحك أو البكاء.

سأل المصور مبهوراً: «بالله عليكما، لِمَ لم تأخذا معاً صورة الغلاف؟»

نظرت إليه مادلين وقد أربكها سؤاله.

تابع المصور قائلاً: «إنني أقول لكما إنني التقط لكما معاً، صوراً في دقيقة واحدة أكثر مما التقطت في الساعة الأولى...» استدار بسرعة إلى بيكي واعتذر قائلاً: «أنا لا أتهجم عليك، يا آنسة. لقد بدوت رائعة مثلهما، لكن...»

إبتسمت له بيكي بشكل مدهش وقالت: «لا يجب عليك أن تعتذر. أنا أفهم ما...»

قالت مادلين مقاطعة: «ماذا تعني أنك التقطت صوراً لنا معاً؟»

«الصور، يا ملاكي.» تحرك دافيد ليجلس بجانبها وأمسك بيدها ثم تابع كلامه: «ألم تشاهدي لمعان عدسة التصوير؟»

لم تعلم كم من الوقت بقيت جالسة هناك بمفردها عندما ظهرت بيكي فجأة بجانبها، وعلى وجهها قناع قاس من الغضب.

هزت مادلين رأسها من دون أن تتفوه بكلمة، وهي

تتساءل كيف لم تنتبه لشيء واضح مثل لمعان عدسات التصوير... ثم اتضح لها كل شيء بعد أن تذكرت النجوم التي راحت تضيء كالشهب؛ والأسهم النارية التي رأتها خلف عينيها المغمضتين.

قال دافيد: «هيا، أنا أعلم أنك لم ترحبي بفكرة التقاط صورة لكما معاً لاستعمالها على غلاف الأسطوانة، لكن لا يوجد شخص في هذا المسرح، إلا ويعرف بالتحديد من يجب أن يحتل غلاف الألبوم... أنت والياس. معاً.»

قال المصور: «لا يمكنك أن تخدعي الكاميرا، أنت تعلمين ذلك. أنتِ ترتدين صورة شخصين متحابين؟ خذي صورة اثنين متحابين!»

جمدت مادلين في مقعدها وأصبحت يداها فجأة باردتين في يدي دافيد. يا إلهي، هل كانت شفافة لهذه الدرجة؟ هل لاحظ الجميع كيف تشعر تجاه الياس، بمجرد النظر إلى وجهها؟ قالت بسرعة وهي تحاول أن تنفي ذلك قبل أن ينفيه الياس: «لا، هذا ليس ما رأيتم. إننا نحب الموسيقى، ليس بعضنا بعضاً.»

بيكي علمت أنها كانت تكذب؛ رأت مادلين ذلك فوق وجهها. فقد لمعت العينان البنيتان بكراهية جليدية بدت كأنها تحذير.

قالت مادلين في نفسها وهي تبتسم بألم، لا تقلقي، يا بيكي. قد أحب الياس، ولكنك لن تجدي أية منافسة مني. إنك المرأة التي يحب.

نظرت بيكي وراء مادلين فجأة، واتسعت حدقتاها بشيء بدا كأنه تحذير ثم ضاقت حدقتاها فيما هي تنظر ثانية

إليها وقالت حانقة: «عمل رائع، يا مادلين.» ثم استدارت حول المقعد بسرعة واختفت عن الأنظار.

تنهدت مادلين وأغمضت عينيها وهي تحاول أن تغوص إلى الأعماق حيث لم يصل الألم، لكن دافيد لم يكن يسمح لها بذلك. كان لا يزال جالساً إلى جانبها فوق المقعد، وذراعه فوق كتفيها وهمس في أذنيها: «إنك تقتلينه، يا ملاكي. ألا تستطيعين رؤية ذلك؟»

قطبت جبينها وهي تتساءل لِمَ لا يقول أحد اليوم شيئاً معقولاً. فقط لو يدعونها وشأنها؛ فقط لو تستطيع أن تختفي...

سمعت بيكي تنادي دافيد من مكان ما بعيداً عن خشبة المسرح، ابتسم بحزن وقفز بسرعة ليجيبها، ثم راقبت الآخرين بعدم مبالاة وهم يغادرون واحداً تلو الآخر. العرض انتهى والناس غادروا، فكرت بحرارة.

لم تعلم كم من الوقت بقيت جالسة هناك بمفردها، عندما ظهرت بيكي فجأة بجانبها، وعلى وجهها قناع قاس من الغضب.

قالت بحدة وهي تشير بإصبعها باتجاه الباب: «حسناً، هيا بنا. بفضلك، سوف نذهب بمفردنا إلى البيت في سيارة دافيد. إيلي ذهب من دوننا.»

قطبت مادلين جبينها لهذا التطور أيضاً الذي لا يبدو تصرفاً لائقاً. قد يكون الياس شعر بالإرتباك لما قاله المصور؛ وربما شعر بالغضب من كلام كهذا، قد قيل في حضور بيكي. ولكن ذلك ليس سبباً حتى يغادر بسرعة ويتركنا بمفردنا هنا.

www.Rewity.com

سألت بيكي بصوت منخفض: «لِمَ كان يجب أن يغادر بمفرده؟»

أجابت بيكي بفتور: «لأنه لا يحتمل وجودك معه. لهذا السبب. والآن لنغادر.»

هزت مادلين رأسها وهي شاردة، وغلّفت نفسها في غطاء اللامبالاة الذي عمل على حمايتها لسنوات طويلة.

الفصل الخامس عشر

جلست مادلين في مقعدها داخل السيارة متصلبة، فيما كانت بيكي تقود سيارة دافيد باتجاه روزوود في صمت مطبق يخفي وراءه غضباً شديداً. وراحت مادلين تخاطب نفسها قائلة ما الذي يجعلها غاضبة هكذا؟ فقد نالت أخيراً ما كانت تصبو إليه... عودة الياس إلى روزوود وخروجي أنا منها...

أعطت لأفكارها بعض الراحة في محاولة لتقييمها من جديد. فهي لم تدرك إلا حتى هذه اللحظة أنها استسلمت أخيراً للأمر المحتوم. فقد كانت مستعدة لمغادرة روزوود.

تنهدت ثم تحولت برأسها لتشاهد الطبيعة تنبسط أمامها من خلال النافذة، وهي تفكر في المرة الأولى التي قادها فيها الياس إلى روزوود. فهل كان ذلك منذ أقل من شهر؟ فقد بدا العالم مشرقاً كما مستقبلها في ذلك اليوم، في حين كان الربيع يتربع في كل الأمكنة التي رنت بنظرها إليها. وكانت الغيوم الداكنة تلامس الأفق، وقد أحست بثقلها على كتفيها.

استهلت حديثها وهي تعبة من هذا الصمت المشدود بينهما فسألت بيكي: «كيف سيسترجع دافيد سيارته؟»

أجابت وقد ارتعش فمها بغضب: «... سأعيدها الليلة. فمن المفترض أن أبقى معه لتناول العشاء.»

تحولت مادلين وهي تنظر إليها، وقد تقوس حاجباها الشاحبان قليلاً وقالت: «ستتناولين العشاء مع دافيد؟»

رددت بيكي كلماتها على شكل ببغائي ملؤه السخرية قائلة:

«نعم... سأتناول... العشاء... مع... دافيد.»

«حسناً... ألا يمانع الياس في ذلك؟»

«ولماذا يمانع؟»

«لماذا يمانع؟ كيف تسألين عن ذلك؟ حتى أنه أخبر دافيد أن يبقى بعيداً عنك. في ذلك اليوم الذي ذهبا فيه لبيتك ليتحدثا عن غلاف الأسطوانة...»

عيل صبر بيكي وهي تشد على فمها فقالت: «لا غُرو في أن يكون دافيد متوتراً في ذاك اليوم.» وغمغمت كأنها تحدث نفسها: «لا مادلين: «كان علي أن أخمن بأن الياس قد قال شيئاً من هذا القبيل.»

غمغمت مادلين وهي تنظر إلى حيث القت يديها على حضنها: «كان عليه أن يتزوجك قبل أي شيء.»

قالت بيكي وهي تصرخ: «ماذا؟» فيما انحرفت السيارة قليلاً وقد تشنجت يداها وهما ممسكتان بالمقود واردفت قائلة: «يا إلهي! ما هذا الذي تقولينه يا مادلين؟»

رفّت عينا مادلين وهي تنظر إليها مندهشة وسألتها: «ماذا؟ وما الرهيب في ذلك؟»

«ما الرهيب في ذلك؟ هل جننت؟ أتزوج أخي؟»

كانت بيكي تغلي غضباً... واماراتها خير دليل على هذا... أما مادلين فلم تستطع أن تسمع ما كانت تتفوه به. ولبرهة من الزمن لم تعد تنصت إلا لاندفاع أفكارها المجنونة وهي تحاول أن تعطي معنى لهذا العالم الذي انقلب فجأة رأساً على عقب.

استطاعت أخيراً أن تهمس قائلة: «أخوك؟ هل الياس... أخوك؟»

أدارت بيكي وجهها ببطء وراحت تنظر إليها وقد تقوس حاجباها بريبة ظاهرة وقالت بحذر: «بالطبع هو أخي، ولكنه غير شقيق... أنت تعلمين ذلك...» وعندما رأت عينيْ مادلين تتسعان ورأسها يهتز في دهشة صامتة، وقد غادرت الريبة وجهها ليحل محلها عدم التصديق. سألتها: «وكيف لا تعلمين بذلك؟» وراحت تحملق في الطريق أمامها وكأن في تجاهل مادلين هذا ثمة خطيئة كبيرة.

همست مادلين وقد تحركت شفتاها قليلاً: «لم يخبرني أحد بذلك.»

تابعت بيكي وهي تلح في سؤالها وقد تجهمت أساريرها: «ولكنك كنت تعلمين من أنا حين جئت إلى البيت في اليوم الأول. فقد قلت إن الياس أخبرك بأني قادمة...»

«قال لي بأنك قادمة، وإنك ستأتين كل يوم من القرية لتطبخي وتنظفي المنزل... ولم يقل لي البتة إنك أخته...»

صححت بيكي عباراتها هذه بسرعة آلية قائلة: «إني أخته ولست بشقيقته. فقد كنا من الأب نفسه... ومن والدتين مختلفتين.»

جلست مادلين وهي ساكنة تحاول أن تتنفس، وأن ترفّ بعينيها وهمست قائلة: «لما لا تعيشان معاً في البيت نفسه؟»

هزت بيكي برأسها قائلة: «بعد طلاق أبويه. تزوج أبوه من أمي وأنجباني. عشنا لفترة خارج البلد ولم التق بالياس أبداً إلى أن حضر هو وأمه الجنازة...» وبدأ

صوتها ينخفض في نبرته فيما حاولت أن تستعيد السيطرة على أفكارها لبرهة ثم أردفت قائلة: «لم أكد أنتهي من المدرسة حتى قُتل أبواي في حادث سيارة... هكذا انتقلت عائلتي إلى دار البقاء في رفة جفن... وأثناء الجنازة، قال لي الياس وأمه إن لي عائلة في برايتون سكواير وقد حان الأوان لأن أتعرف عليها، هل تصدقين ذلك؟ انتقلت إلى هناك بعد مرور سنة، وحتى يوم وفاتها كنت أحب والدة الياس، كما كنت أحب والدتي على وجه التقريب.»

بقيت مادلين صامتة بدهشة وهي تلمح ظلال الياس تلوح في صورة بيكي الجانبية لأول مرة. وراح فكرها يتوقف عند كل الأشياء التي حصلت في روزوود وهي تحاول أن تجد مغزى لها أو أن تدرك الحكمة من ورائها.

تابعت بيكي قائلة: «هذه هي الحكاية، على الرغم من أني لا أدرك الفرق الذي أحدثته.»

أخذت مادلين تحملق أمامها، وما يكاد يرف لها جفن وقد أرخت يديها على حضنها، وتمتمت قائلة فيما كان صوت محرك السيارة يختنق: «كل هذا الوقت وأنا أظن أنكما عاشقان.»

جمدت بيكي وهمست قائلة: «ماذا؟»

أومأت مادلين برأسها ببطء قائلة: «فقد كان واضحاً أن ثمة علاقة خاصة بينكما، في الطريقة التي كان يتحدث بها عنك وبالطريقة التي كنت تتصرفين بها عندما تكونان معاً... وأشياء أخرى بسيطة... وكنت أظن أنها...»

تأوهت بيكي وقالت: «آه، يا إلهي!»

أضافت مادلين بهمس خفي: «وكنت تكرهينني، وبقدر

ما كنت أحب الياس بقدر ما كنت تكرهينني...» تطايرت خصلات من شعر بيكي وهي تستدير لتنظر إليها وهمست قائلة: «تحبين الياس؟»

أومأت مادلين برأسها وارتعشت شفتاها.

راحت بيكي تحملق في الطريق أمامها لفترة من الوقت ورأسها يهتز بطريقة لا شعورية. ثم قالت أخيراً من دون أن تنظر إليها: «لقد كنت أكرهك يا مادلين لأنني كنت أظن بأنك لاتحبينه. فقد دعاني في الليلة التي تعرف فيها إليك وطلب مني أن أحث الخطى وأسرع إلى البيت لأنظف غرفة النوم لأنه كان مستقدماً معه المرأة التي كان ينوي الزواج منها، تلك المرأة التي أعادت إليه موسيقاه...»

أمسكت مادلين عن التنفس وراحت تحملق إليها قائلة: «لم يقل لي ذلك أبداً. لم يقل شيئاً من...»

بدت بيكي غير موافقة وقالت: «بالطبع لم يفعل. فقد كنت عازفته، تماماً مثل زوجته... فقد بدا الأمر شبيهاً بما حصل معه في المرة الأولى، وكان هذا الشيء يرعبه.»

تذكرت مادلين ذاك اليوم الأول الذي صرفاه في الاستديو، وقد كان الياس في غاية الحرص على أن يبقي تورطه العاطفي بعيداً عن تداخله مع موسيقاه...

تابعت بيكي قائلة: «إلا أنه لم يستطع ذلك. فقد كان مستحيلاً لديه أن يفكر فيك أو أن يعتبرك مجرد صديقة... كما أنت تعلمين مما حصل ليلة البارحة.»

تحولت مادلين برأسها من جانب إلى آخر لتنظر إليها ثم قالت: «تعلمين ما حصل ليلة البارحة؟»

تحولت قسمات بيكي أكثر جدية وقالت: «ما قاله لي

فقط... من أنه استسلم لما شعر به منذ البداية، وأنه خاطر بكل شيء... وهذا الصباح طرحت كل شيء بوجهه.»

همست مادلين قائلة: «لقد حسبت أنه يحبك، لقد حسبتها غلطة رهيبة...» وتلاشت كلماتها فيما راحت تحملق إلى الزجاج الأمامي للسيارة وقد أدركت أن الأخطاء قد بدأت تتراكم قبل الأمس بكثير، وقبل أن تتعرف إلى الياس.

ابتسمت ابتسامة كئيبة وهي تفكر بكل ما استجلبته إلى داخل صداقتها مع الياس والذي كان سبباً في القضاء على هذه الصداقة. فقط لأن احداً لم يحبها قط، فكرت أن لا أحد يستطيع أن يحبها؛ ولأن الياس قد خدع مرة في حبه فقد ظن أن الحب هو الذي خدعه، وأن شعوره بالحب لا يمكن الركون إليه مطلقاً. لقد انشغلا كثيراً بملاحقة دروس الماضي وفي الاستماع إلى تحذيرات الذاكرة حتى أنهما أضاعا فرصتهما في المستقبل.

إستغرقت في تفكيرها وهي تراقب طريق الأسفلت المنبسط أمامها وراحت تخاطب نفسها قائلة إن كثرة سوء التفاهم بينهما، منذ البداية، حدثت كلها لأنهما كانا جاهلين بما كانت الموسيقى تقول لهما. ونسيا أن الموسيقى لم تكن سوى تلك الأغنية الآتية من القلب.

أصلحت مادلين من جلستها وعيناها عالقتان في الطريق أمامها وقد اشتدت عضلات وجهها وهمست قائلة: «أسرعي يا بيكي. علي أن أرى الياس. علي أن أرجع إلي البيت.»

إبتسمت بيكي ابتسامة خفيفة، ووطئت دواسة البنزين وأعطت انتباهها للطريق أمامها.

الفصل السادس عشر

وقفت مادلين، بعد أن أنزلتها بيكي من السيارة، لبرهة من الوقت في الحديقة الأمامية وهي تنظر إلى المنزل، إلى لون المظلات الأبيض اللماع، وإلى الشجيرات المصطفة بانتظام حول الباب الأمامي، وإلى كل تلك المتغيرات التي أحدثتها كي تقول للعالم أجمع إنها مرت من هنا. ابتسمت لزنبقة الوادي التي أزاحت عنها غلافها وهي تشرئب الآن في ظلال الشجيرات الباردة وكأنها ترن أجراسها ترحيباً بها. وكانت الغيوم الداكنة وراءها تقبّل الأفق في رحيلها البعيد باتجاه الشرق فيما بقيت طبقات رقيقة منها لتخفف من وهج الشمس.

«الياس؟» نادت وهي تدخل البيت. وأغلقت الباب خلفها ووقفت في المنزل الهادىء وهي تنصت إلى رجع صوتها. فقد كان هذا الصمت لا يحمل لها في طياته أية بشرى إلا أنه كان بالنسبة لها واعداً في مضمونه. ولم يكن يشوب هذا السكون غير دقات الساعة الرتيبة، المتصاعدة من المطبخ وهمهمة البراد الخفيضة... كل أصوات المنزل كانت تدل على ارتعاش الحياة فيه، ولكنها تنتظر على أحر من الجمر للترحيب بعودة مالكيه.

لامست حاشية فستانها الأسود أرض الغرفة الخشبية بمداعبة لطيفة وهي في طريقها إلى المطبخ. كما لامست

يدها الجدار في خلال مرورها. وكان رأسها مرفوعاً وابتسامة ناعمة تطوف على شفتيها.

ترددت قليلاً وهي أمام باب المطبخ وراحت تتساءل عما إذا كان البيت والحب والعائلة في متناولها. فهي لم تعترض أبداً على مصيرها، ولم تشعر قط أنها خليقة بالحب لتسأل عنه جهاراً. وربما كان هذا جزءاً من السبب الذي حدا بالعائلات التي آوتها إلى أن تستغني عنها... لأنها لم تدعها ترى كل ما يعتمر به قلبها من حب.

أحست بثقل الماضي يرتفع عنها، بعدما كان جاثماً عليها، ليذهب بعيداً. وكانت قدماها ما تكادان أن تلامسا الأرض وهي في طريقها إلى نافذة المطبخ لتنظر إلى الخارج.

كان الياس في الخارج، وهو جاثم على ركبتيه في حديقة وردها، وهو لا يزال مرتدياً سترته السوداء والتي لبسها في ذهابه إلى المدينة. ورأت رأسه المنكس من خلال الزجاج فيما كان عاكفاً على قاعدة إحدى الشتلات وشعره الأسود يرتعش مع حركة يديه.

عندما خرجت لملاقاته، لم تشعر فقط أنها امرأة سائرة لملاقاة الرجل الذي تحب، بل شعرت وكأن موجة دافئة مزبدة لا ترحم، تحملها من واقعها الأسود إلى شاطىء قدرها المشرق.

توقفت قربه وراحت تنظر في حدقتيه الخضراوين اللتين كانتا تبادلانها النظر. وقالت له: «لقد اكثرت من ملابسك لعمل كهذا، يبدو أن علينا أن نجلب لك بعض الملابس الخاصة بالحديقة.»

اهتز حاجباه بارتعاشة محيرة وأحست مادلين بفيض مؤلم من حنانه يغمرها.

نظر إلى ركبتي السروال وقد تلطختا بالتراب وهز بكتفيه لا مبالياً. عندما نظر إليها مجدداً أجفل قليلاً، فيما راحت هي تتساءل إذا كان هذا التحول الحاصل في كنهها كان ظاهراً على تعابير وجهها. وللحظة واحدة ارتفعت الستارة الدفاعية عن عينيه ولمحت مادلين بريق أمل وتوق، وألم كل انعكاسات احساساتها القديمة، ثم هبطت الستارة ثانية وتحول وجهه إلى البرودة.

«لا أحتاج إلى ثياب البستنة. فلا أنوي البقاء في روزوود.»

كان احساساً غريباً أن تبتسم لكلمات كانت ترسل روحها لتحلق عالياً منذ فترة قصيرة من الوقت. فلا يهم إذا كانا سيغادران روزوود لأنها باتت تعلم الآن أن البيت الذي تاقت إليه لم يكن مكاناً ـ حتى ولو كان مكاناً أحبته كهذا.

قالت بهدوء: «حسناً، إذا كنت تريدنا أن نذهب إلى مكان آخر، فسنذهب.»

نظر إليها ووجهه خلو من أي تعبير وقال: عمَ تتكلمين؟ عليك أن تدركي أكثر من أي شخص أننا لن نعمل سوية بعد الآن... فهذا... صعب.»

سألته وهي تحاول أن تبقي نبرة صوتها خفيضة: «لماذا؟» أما في داخل نفسها فقد كانت تصرخ فيه ليتفوه بها، ليتفوه بها جهاراً مرة واحدة فقط؛ لو كانت بيكي محقة من أنه احبها كل ذلك الوقت، لماذا لا يقول ذلك؟

غمغم قائلاً وهو لا يزال جالساً على الأرض: «تعلمين تماماً السبب.»

ألحت عليه قائلة وفي صوتها ارتعاشة: «قل لي، أريد أن أسمعها منك تقولها جهاراً.» وكانت يداها متشبثتين إلى جانبيها وجسمها منحنياً إلى الأمام. فقد كان مستقبلها متوقفاً على جوابه.

رمى بحفنة من التراب إلى الأرض ووثب واقفاً وأردف قائلاً: «هل تريدين سماعها عالياً؟ حسناً: لأني لا أستطيع الاضطلاع باتفاق كهذا! لا أستطيع أن أتابع هكذا وأنا ادعي أن كل ما أحس تجاهك هو محض صداقة...» واغمض عينيه بهدوء فجأة وارتخت كتفاه وتابع قائلاً بهدوء: «لا يزال الحب يعترض طريقنا. لقد قلت لك كل ذلك... في ذاك الصباح الذي كان فيه دافيد في البيت، أتذكرين؟»

عكس وجهها لحظة من الألم. وراحت تتذكر ذلك الصباح وما قاله لها الياس في أن الأحاسيس قد تداخلت مع علاقتهما المهنية منذ البداية، إلا أنها خمنت أنه كان يتحدث عن عواطفها وأحاسيسها هي لا أحساساته هو.

تمتمت قائلة وقد صفعتها أصوات الكلمات: «أنت تحبني؟»

التوى فمه بابتسامة وراح ينظر إلى جهة واحدة. وأجابها في نبرة جافة: «لقد كان الأمر واضحاً منذ البداية، أليس كذلك؟ وقد كان أكثر مما كنت تراهنين عليه. وقد كان ذلك واضحاً أيضاً.»

الآن أصبح كل شيء تحت المجهر؛ وبطلت الادعاءات.

«هل أنت راضية الآن؟» استدار برأسه وجعل يحملق فيها وأجفل حين رآها تبتسم لألمه فقال: «اعتقد أن عليك أن تحزمي امتعتك، يا مادلين، سأقودك إلى المنزل.»

راحت تتذكر تلك اللحظات التي كان فيها الناس يقولون لها إن عليها أن ترحل...

أغمضت عينيها لبرهة وشدت على فكها بحزم. وقالت بهدوء: «أنا في بيتي.» استدار بوجهه ببطء لينظر إليها. وراح وجهه الجميل يختفي ويظهر من أمام عينيها اللتين اغرورقتا بالدموع وقالت: «لقد علمت أني في بيتي في اليوم الأول الذي رأيت فيه وجهك.» وأضافت بما يشبه الهمس: «لم أكن أظن أنك تريدني.»

فغر فاه وخرجت كلماته في دهشة، أشبه بالهمس:

«لم تكوني تعتقدين أنني كنت أريدك؟»

إرتعشت شفتاها فيما كانت تومىء برأسها وترف عينيها وهي تراقب عينيه وقد اسودتا كمن كان خائفاً من أن يضم الفرح لعلمه بأنه سينتشل منه. إنها نظرة تعرفها جيداً لكثرة ما كانت تنظر إليها في المرآة. وكانت هناك أشياء كثيرة ترغب في قولها له، وفي حاجة للشرح إلا أن الوقت لم يكن ملائماً.

إبتسمت له وهي تبكي، تتعجب كم كانا يتشابهان في نواح عديدة... ما عانياه من النبذ حتى أنهما تعلما أن يخافا من الحب نفسه. فقد اعمى الخوف بصيرتهما، فلم يستطيعا أن يريا الحب في عيون بعضهما بعضاً.

همس بإسمها وعيناه تطوفان في وجهها ثم تضيئان بخضرة الربيع الواعد بعد فترة من الشتاء الطويل وقال

www.Rewity.com

هامساً: «أنت تحبينني، يا مادي. يا إلهي، أنت تحبينني...»

أمسك بها من كتفيها وقد ضاقت حدقتاه وقال لها: «قولي لي إنك تحبينني، يا مادلين. قوليها عالياً.»

تحركت شفتاها وهي تحاول أن تجد الكلمات التي لم تتفوه بها بعد، وقبل أن تنبس بكلمة، بدأ بعناقها.

همس في أذنها قائلاً: «قولي إنك تحبينني.» شعرت بكلمات لم تتفوه بها قبلاً تطير هاربة من فمها.

اتسعت عيناها للحظة، وهي تشاهد هالة الغيوم التي تحيط بوجه الياس، وقد مزقتها الريح أخيراً ونثرتها. ومن خلال الستارة البيضاء والنور والدفء، وبالقرب من الياس ومادلين، تفتحت أولى براعم الورد لتستقبل قبلة الحياة.

تمت

www.Rewity.com